روايات الهلال

السّكيرْ

إميل زولا



روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ٢١٩ * مارس ١٩٦٧ * ذو الحجة ١٣٨٦

No. 219 — Mars 1967

بيانات ادارية

أسعار البيع ابتداء من العدد ٢١٧
الصادر بتاريخ ١٩٦٧/١/١٥

ثمن العدد : فى الجمهورية العربية المتحدة ١٠٠ مليم – عن الكميات المرسلة بالطائرة – فى سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا ، فى الاردن والعراق ١٣٠ فلسا

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه واحد – فى السودان جنيه سودانى واحد – فى سوريا ولبنان ١٢٫٥٠ ليرة سورية لبنانية – فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم – فى الامريكتين ٥٫٥٠ دولارات – فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

وقيمة الاشتراكات تسدد مقدما فى الجمهورية العربية المتحدة ، والسودان بحوالة بريدية – وفى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال على أحد بنوك القاهرة

سعر البيع للجمهور : البحرين : ٢٠٠ فلس بحرينى ، الدوحة : ٢٠٠ نيابيزة ، عدن : ٢٨٠ سنتا ، السودان : ١١٠ مليمات ، ليبيا : ١٤٠ مليما ، الجزائر : ٢٢٠ سنتيما ، أثيوبيا : ١٢٠ سنتا

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب – القاهرة تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشة الفنان
حـــلمى التــونى

السكير

بقلم

إميل زولا

دار الهلال

الفصل الأول

الانتظار

ظلت جرفيز تنتظر حبيبها لانتيير فى النافذة حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل . ولما عجزت أخيرا عن احتمال البرد وهى واقفة بقميصها الداخلى الابيض ، ألقت بنفسها على الفراش ، محمومة .. دامعة العينين . لقد اعتاد لانتيير ، فى الاسبوع الاخير ، أن يعود بها مساء بعد أن يتناول معها العشاء فى مطعم « فيوآديوتينت » ، أن يطلب منها أن تنام مع ولديهما ، ثم يخرج بمفرده ليعود فى ساعة متأخرة زاعما انه كان يبحث عن عمل . ولكنها فى هذا المساء ، خيل اليها انها رأته ــ من النافذة ــ يدخل مرقص « جراند بالكون » الذى كانت نوافذه العشر تضىء حافات الظلام فى الشوارع القريبة كأنها شريط من النور . ومن ورائه، اى لانتيير، خيل اليها انها رأت الفتاة اديل العاملة بمصنع تلميع المعادن والتى اعتادت أن تتناول طعامها فى نفس المطعم « فيوآديوتيت » تسير وهى تطوح ذراعيها على مسافة خمس أو ست ياردات منه . وكان الواضح انهما كانا حريصين على أن يسيرا منفردين حتى لا يلفتا اليهما الانظار تحت الاضواء الساطعة

ولما استيقظت جرفيز فى نحو الساعة الخامسة ، متصلبة الجسم موجعة المفاصل ، انفجرت باكية . ان لانتيير لم يأت بعد . وانها للمرة الاولى التى يبيت فيها ليلته بعيدا عنها . وانها لتبقى جالسة فى فراشها تتلفت بعينين دامعتين الى الغرفة المفروشة المستأجرة ، فلا ترى الا مظاهر الفاقة فى كل مكان .. فلم يكن بالغرفة الا فراشان لها ولزوجها ، ولابنيهما كلود ابن الثامنة من عمره ، واتيين ابن الرابعة من العمر ، وصيوان ملابس ، وخزانة ادراج ، وثلاثة مقاعد ، ومنضدة عليها ابريق ماء . وفى ركن من الغرفة حقيبة الملابس الكبيرة ، مفتوحة ، وبعض الملابس القذرة تطل منها . وكذلك كان

ثمة ملابس مغسولة ومنشورة على ظهور المقاعد . وفوق خزانة الادراج، وبين شمعدانين صغيرين ، كان ثمة ايصالات رهن زرقاء اللون مجمعة بمشبك

وكان الولدان مستغرقين فى النوم .. ولما وصلت نظرات الام اليهما ، انفجرت باكية مرة اخرى ، ثم ضغطت بمنديلها على فمها حتى تكتم شهقاتها ، ولم تلبث أن نهضت ـ حافية القدمين ـ ومضت مرة اخرى لتقف فى النافذة .. تنتظر .

وكانت الغرفة المستأجرة فى فندق بشارع دى لاشابيل على اليسار من شارع بواسونير . وكان الفندق بناء حقيرا أحمر اللون مكونا من طابقين يحمل اسم « فندق بونكير ، لصاحبه مارسولير » . وظلت جيرفيز واقفة فى النافذة ، والمنديل على فمها تمد البصر يمينا فى اتجاه شارع دى روشيكورت حيث كانت جماعة من الجزارين تقف أمام المجزر القريب ، وقد تلوثت ملابسهم بالدماء . واذا مدت بصرها شمالا رات فى نهاية الشارع البعيد مستشفى لاريبوازير الذى كان تحت الانشاء فى ذلك الحين .

وخيل اليها مرة اخرى انها رات لانتيير يسير بين جموع العمال الذاهبين الى اعمالهم ، فاطلت براسها لتحسن النظر ، ولكنها سمعت من ورائها فى تلك اللحظة من يقول لها بصوت فيه رقة ومرح

ـ الم يحضر بعد رجلك الطيب يا مدام لانتيير ؟ !

فتراجعت عن النافذة قليلا ، واجابته بابتسامة خفيفة :

ـ لا يامسيو كوبيو ...

وكان المتحدث هو السباك الشاب كوبيو المقيم فى غرفة بأعلى الفندق ايجارها الشهرى عشرة فرنكات . وكان هابطا فى طريقه الى العمل ، يحمل حقيبة ادواته على كتفه . ولما وجد مفتاح غرفة جيرفيز بالباب ، دخل بلا كلفة أو استئذان .

وقال مردفا وهو يشير الى المستشفى الجارى بناؤه :

ـ أترين .. اننى أعمل فى اقامة هذا المستشفى . ولكن .. ياله من جو بارد هذا الصباح رغم شهر مايو !

ثم نظر فى وجه جرفيز المنتفخ بالبكاء ، ثم الى السرير الذى دل على أن أحدا لم ينم فيه ، ثم هز راسه اسفا وقال وهو يقترب من

فراش الطفلين النائمين ٠

ـ اذن فقد اطلق رجلك الطيب العنان لنزواته ؟ لا تحزنى يامدام لانتيير ٠٠ انه مشغول بالسياسة ٠ وقد كاد يلقى حتفه وهو يشتم الامبراطورة ايوجين اثناء مرور موكبها فى ذاك اليوم ٠ ولعله أمضى الليلة كلها مع بعض الاصدقاء فى استمطاء اللعنات على بونابرت ٠

فجمعت جرفيز نفسها وغمغمت قائلة :

ـ لا لا ٠٠ ليس الامر كما تظن ٠٠ اننى اعرف اين امضى ليلته٠ ان لدينا متاعبنا الخاصة مثل كل الناس ٠

فهز كوبيو كتفيه وقال انه آسف لتدخله فى شئون غيره ، ولكنه على استعداد لتقديم اية خدمات لها فى أى وقت ..

ثم انصرف ٠٠ وعادت جرفيز الى النافذة ٠

وبقيت فى النـــافذة ترقب العمال وهم فى طريقهم الى اعمالهم المختلفة ، ثم ركزت نظراتها على باب حانة بيركولومبس ، على يســار الطريق ، حيث خيل اليها انها رات لانتيير يدخلها . وفى تلك اللحظة رفعت امراة بدينة تضع على صدرها مبدعة ، راسها وهى واقفة فى الطريق ، وهتفت قائلة لجرفيز :

ـ مدام لانتيير .. انك مبكرة فى اليقظة اليوم !

وأطلت جرفيز من النافذة ، فرأت أن المتحدثة هى مدام بوش ، بوابة المنزل الذى يقع فيه مطعم « فيواديوتيت » . ومن ثم ردت عليها قائلة :

ـ آه . ! اهذه انت يامدام بوش . ؟ ان لدى اليوم اعمالا كثيرة يجب أن افرغ منها .

ـ صدقت .. ان الاعمال لا تعمل نفسها .. لابد من أن يقوم بها احد ، أليس كذلك ؟

وهكذا بدات المحادثة بين المراتين .. وكانت مدام بوش صديقة خاصة لجرفيز التى كثيرا ما جلست فى غرفتها ـ غرفة مدام بوش البوابة ـ تنتظر حضور لانتيير الى المطعم ، حتى لا تبقى فى انتظاره داخل المطعم بمفردها عرضة لانظار وغمزات الرواد ...

وقالت مدام بوش ـ البوابة ، وقد لاحظت شرود ذهن جرفيز أثناء حديثها معها :

ـ هل المسيو لانتيير لا يزال نائما ؟

واضطرم وجه جرفيز وهى تكذب قائلة :

ـ نعم .. لا يزال نائما .

ولاحظت مدام بوش الدموع تطفر الى عينى جرفيز ، وظنت ان صديقتها تبكى لان لانتيير يفضل الكسل والنوم على العمل . وقبل ان تنصرف قالت كأنها تذكرت شيئا :

ان اليوم موعد الغسيل .. اليس كذلك ، لسوف احجز لك مكانا بجوارى فى المغسل لنتحدث كما نشاء .

ثم أردفت قائلة فى لهجة تنم عن العطف والرثاء :

ـ ادخلى من النافذة ياعزيزتى المسكينة .. ان البرد قد يقتلك .

ولكن جرفيز ظلت تنتظر ساعتين أخريين . وفتحت المتاجر أبوابها فى الثانية صباحا ، وازداد مرور جماعات العمال من كل مكان الى كل مكان . واخذت المدينة تفتح عينيها بعد ان تمطلت وتثاءبت ودب فيها النشاط بأكمله . وشعرت جيرفيز برأسها يدور ؛ وامالها تنهار ، ولاح لها ان لانتيير لن يعود اليها ابدا .. فتراجعت عن النافذة وتهالكت جالسة على اقرب مقعد اليها ، وعقدت يديها فى حجرها ، وفجأة رأت لانتيير يدخل هادئا ، فوثبت واقفة وصاحت قائلة وهى تهم بعناقه .

ـ أهذا انت .. انت ؟ !

فرد بثبات :

ـ نعم أنا .. ماذا فى هذا ؟ ارجوك انتتمالكى نفسك .. لا اريد مزيدا من الحماقات .

ودفع بها جانبا فى غضب ، والقى بقبعته على خزانة الادراج . وكان شابا فى السادسة والعشرين من عمره ، وسيما ، رفيع الشارب قصيرا ، خمرى البشرة اسود الشعر . وكان يرتدى ملابس العمال ، الصديرية والبنطلون الكتانى . وكانت لهجته تنم عن ريفيته :

وقالت جرفيز فى عتاب :

ـ اننى لم استطع النوم لحظة واحدة طيلة الليل . ظننت ان شيئا حدث لك . أين كنت . أين أمضيت ليلتك ، أوه .. أرجوك .. أخبرنى حتى لا أفقد عقلى .. أين كنت ياأوجست ؟!

فهز اوجست لانتيير كتفيه وقال بغير اهتمام :

ـ كنت حيث ينبغي أن اكون ! في الساعة الثامنة كنت في حانة لاجلاسيير حيث انتظرت صديقا كان قد وعدني بالعمل معه في المصنع الذي يعمل به . وقد تأخرنا الى مابعد منتصف الليل في الحديث ، فقررت أن امضي الليلة هناك . ومع هذا فأنا لا أحب ان يستجوبني احد او يتجسس على احد .

وعادت الشابة جرفيز تبكي مرة أخرى . وكان صوت لانتيير واصطدامه بالمقاعد قد ايقظ الطفلين ، فلما رايا أمهما تبكي ، راحا يبكيان معها . فصاح لانتيير بهما في غضب :

ـ كفى .. كفى .. ماهذا ؟ انني احذرك . اذا لم تكفي عن البكاء انت وهما .. فسوف أخرج ولا أعود ..

وتناول قبعته من فوق خزانة الادراج ، ولكن جرفيز أمسكت بذراعه في توسل وقالت :

ـ لا .. لا ...

وكتمت بكاءها ، وراحت تهدهد طفليها وتقبلهما حتى كفا عن البكاء . ومالبثا بعد لحظات أن راحا يضحكان ويتبادلان اللكزات ، بينما القى الوالد بنفسه ـ دون أن يخلع حذاءه ـ على الفراش متظاهرا بالارهاق . ولكنه لم ينم ، وانما قال لجرفيز وهو ينظر الى كومة الملابس القذرة في ركن الغرفة :

ـ شيء جميل .. اذن فلم تغسلي الملابس اليوم بعد ؟ !

واردف قائلا بابتسامة تهكم :

ـ ولكن كيف تغسلين الملابس وانت لم تغسلي وجهك ؟

وكانت جرفيز في الثانية والعشرين من عمرها . طويلة رشيقة ، رقيقة الملامح ذهبية الشعر ، ولكن قسوة الحياة تركت على وجهها طابعها الشاحب مما جعلها تبدو اكبر من عمرها بعشرة اعوام . ولما سمعت كلمات لانتيير ، قالت في خوف واستسلام :

ـ انك غير منصف يا اوجست . انني احاول أن افعل كل مافي وسعي . ولا ذنب لي فيما وصلت اليه حالتنا . ماذا يمكنني ان افعل وانا اعيش في غرفة واحدة مع طفلين، وليس لدي موقد اسخن عليه الماء . لقد جئنا الى باريس لتجد لنفسك عملا نقتات منه ..

ولكنك لم تحاول حتى اليوم أن تبحث عن عمل!

فصاح بها قائلا :

ـ الآن تلقين علي باللوم كله .. اليس كذلك !

فهزت راسها وقالت :

ـ لا داعي لان يلقي أحدنا اللوم على الآخر .. ان مدام نوكوفير صاحبة محل الغسيل والمكوى على استعداد لان تلحقني بالعمل معها، واذا استطعت أن تجد لنفسك عملا، فيمكننا أن نصلح أحوالنا في اسرع وقت .. يمكننا في ستة اشهر ان نستاجر لانفسنا شقة صغيرة وان نؤثثها ونعيش محترمين .. ولكن يجب أولا ان نعمل ونعمل .. ولا نكف عن العمل يوما ..

فتقلب لانتيير في فراشه ملولا .. وانفجرت جرفيز قائلة في حنق:

ـ نعم ، هذا هو السبيل .. لا احد يموت من العمل الدائم . ان عيبك أنك منتفخ الاوداج بالطموح والامل . انك ترفض ان تمارس مهنتك كصانع قبعات .. لا تريد أن يقال عنك انك قبعاتي .. تريد ان تبدو كسيد مترف يقضي لياليه مع البغايا المرتديات الملابس الحريرية . انك الآن تعيرني باني لا ابدو في احسن حال .. هل نسيت انك ارغمتني على رهن آخر ثوب حريري كان عندي ؟ اسمع يا اوجست . انني لا اريد ان احمل عليك باللوم الآن . ولكنني أعرف تماما أين امضيت ليلتك ، ومع من . لقد رأيتك تدخل مرقص الجراند بالكون مع تلك البغي أديل . انك معجب بها .. اليس كذلك كثيرا ما تحدثت عنها وعن أختها فيرجيني ، وكثيرا ما اعربت عن اعجابك بملابسهما الحريرية ، ولعلك تظن انها سيدة او آنسة محترمة ، ولكن يجب أن تعلم أنها تبيت لياليها مع كل رواد المطعم .

فوثب لانتيير من الفراش في سورة غضب هائلة وقال صارخا :

ـ اذا لم تكفي عن هذا الحديث فسأقطع لسانك

ولكنها استطردت قائلة وقد سرها أنها أثارته :

ـ نعم .. مع كل رواد المطعم .. وأؤكد لك ان مدام بوش سوف تستأذن مالك البيت في طردها .. وطرد اختها معها ، لان طابور الرجال لا ينقطع كل ليلة امام باب شقتهما .

ورفع لانتيير قبضته ليضربها ، ولكنه تراجع وامسك بذراعها

والقى بها على فراش الولدين اللذين بدآ يبكيان مرة اخرى ، وعاد لانتيير وتراخى على الفراش وهو يغمغم غمغمة الرجل الذى استقر رايه على أمر بعد طول تردد .

وبعد برهة صمت قال :

ـ انك لا تعرفين ماذا فعلت بنفسك الان يا جرفيز ٠٠ ولكنك سوف تندمين على كل كلمة تفوهت بها . ٠

وكانت جيرفيز قد اخذت الولدين بين ذراعيها وراحت تتمتم قائلة بصوت رتيب :

ـ آه .. لولا انتما ياولداى .. لولا انتما .. لولا انتما . .

وظل لانتيير متراخيا فى فراشه ٠ ينظر الى السقف حينا ، والى جيرفيز حينا آخر دون ان ينطق بكلمة ٠ وكانت هى قد انشغلت فى ترتيب الغرفة وتنظيفها وجمع الملابس القذرة لغسلها . وكانت تعرج قليلا بساقها اليمنى . ولم يكن عرجها ملحوظا الا عندما يستبد بها التعب والارهاق ٠ وكانت فى تلك اللحظات مرهقة الى حد انها اخذت تعتمد بيدها على جدران الغرفة بين الحين والآخر . ولما جمعت كومة الملابس المعدة للغسيل ، قال لانتيير لها كأنما تذكرامرا:

ـ ماذا تفعلين .. الى اين انت ذاهبة ؟

ولم ترد عليه فى أول الامر ، ولما كرر السؤال غاضبا ، قالت :

ـ الا تعرف ؟ هل نسيت بسرعة ؟ اننى ذاهبة الى المغسل ، وأيا كانت حالتنا ، فانا لا استطيع ان اترك الولدين يعيشان فى هذه القذارة .

وجمعت منديلين أو ثلاثة ووضعتهما مع كومة الملابس . وعاد هو يقول بصوت هادىء :

ـ الديك بعض النقود ؟

فانتصبت واقفة وحملقت فى وجهه وقد امسكت بين يديها بضعة قمصان للولدين ، ثم قالت فى تهكم :

ـ نقود ؟ من أين تظن ان فى مقدورى أن اسرق ؟ انك تعرف تماما، انى حصلت أمس على ثلاثة فرنكات بعد أن رهنت جونلتى السوداء. ولقد تناولنا بهذا المبلغ الطعام مرتين ٠ وكل ما بقى معى الان اربعة مليمات لادفعها اجرا لصاحب المغسل ، انني لا احصل على النقود

بالطريقة التى يحصل عليها بعض النساء .

وتجاهل المعنى المستتر وراء عبارتها الاخيرة ، ثم نهض وراح يجمع بعض الملابس البسيطة وأضاف اليهـــا مطرفا كان لجرفيز ، وألقى بالكومة بين يديها وقال :

ـ اذهبى وارهنى هذه الملابس .

فقالت متهكمة :

ـ ألا تريد أن نرهن الولدين أيضا اذا وجدنا من يرهنهما ؟!

ولكنها ، مع هذا ، انصرفت بكومة الملابس البسيطة والمطرف ، وعادت بعد نصف ساعة وقالت وهى تضع ورقة من فئة الخمسة فرنكات وايصال الرهن مع باقى الايصالات فوق خزانة الادراج !

ـ هذا كل ما استطعت ان احصل عليه من محل الرهونات

ولم يأخذ لانتيير الخمسة فرنكات فورا ، وانما تمنى لو انها جاءت بهذه الفرنكات فرادى حتى يأخذ جانبا منها ويترك جانبا آخر لتشترى منه طعاما .. ولكنه لم يلبث ان وضع المبلغ فى جيبه حين لمح على المنضدة كمية قليلة من المربى مع بضع كسرات من الخبز .

وقالت جرفيز له :

ـ اننى لم استطع أن اشترى شيئا من اللبن ، لاننا مدينــون للبان بثمن الألبان اسبوعا . وعليك أن تشترى كمية من لبان آخر، وبعض الطعام وزجاجة نبيذ ريثما اعود من المغسل .

ولم يعترض هو على شيء . وخيمت فترة من السلام والسكينة على جو الغرفة . واستأنفت الشابة الحسناء جمع الملابس المعـــدة للغسيل . ولكن لانتيير هتف بها حين رآها تأخذ من قاع الحقيبة الكبيرة بعض قمصانه وجواربه :

ـ لا .. لا .. دعى هذه الاشياء فى مكانها .

فقالت فى دهشة وهى تمسك بها امامها :

ـ عجبا ! اتريد أن ترتدى هذه الملابس وهى على هذا القدر من القذارة ؟

ولكنه انفجر غاضبا وقال :

ـ ما شأنك انت ؟ افعلى ما اطلبه منك بلا معارضة . هذه ملابسى وانا حر التصرف فى امرها .

فقالت وقد شحب وجهها حين خامرتها بعض الوســـــــوس والشكوك :

ـ ولكن ماذا يضيرك لو أنى غسلتها ٠٠ هل تنوى الخروج ٠٠ الان؟!

فتردد برهة ثم قال :

ـ عجبا انك دائما تعيريننى بأنك تتعبين من أجلى ٠٠ حسنا ٠ لا داعى لهذا التعب ٠٠ لسوف أغسل حاجاتى بنفسى ، وعليـك أنت أن تغسلى حاجاتك وحاجات ولديك بنفسك ٠

ثم اختطف ملابسه من يديها وأعادها الى الحقيبة الكبيرة واغلقها المفتاح وهو يردف قائلا :

ـ هذا هو أمري النهائى ...

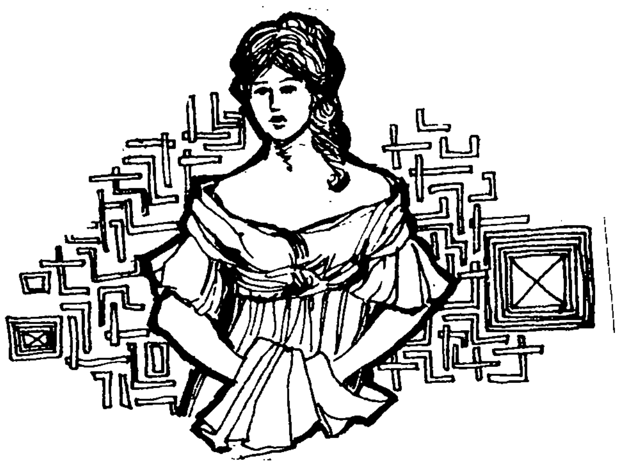
وقالت له بخوف واستعطاف :

انني لم اضج بالشكوى يوما من غسل ملابسك ٠٠ فلماذا ٠٠

ـ لاداعى للجدل ..

ووقفت مترددة .. ولكنه كان قد استلقى على جانبه وأغمض عينيه .. ولم يلبث ان ارتفع غطيطه .. وهزت جرفيز كتفيهـا ، وجمعت ملابسها وملابس الولدين ، واقتربت منهما حيث كانا يلعبان بسدادات زجاجات النبيذ بجوار النافذة وقالت لهما هامسة :

ـ العبا بهدوء الآن .. لان الوالد نائم !



الفصل الثانى

معركة دموية فى المغسل

تركت جرفيز الغرفة وليس بها من صوت غير ضحكات الولدين المكتومة ، وكانت الساعة قد بلغت العاشرة ، وكان ثمة حزمة من ضوء الشمس قد تسللت الى الغرفة عبر النافذة .

واستدارت جرفيز ، حين وصلت الى الشارع ، يسارا ومضت فى طريق نيف دى لاكوت وور . وفيما هى تمر امام محل مدام فوكوفير للغسيل والكى ، حيتها بايماءة خفيفة . وكان المغسل يقوم فى منتصف الطريق،اى فى المنطقة التى يبدأ فيها الطريق للارتفاع .

وفوق المغسل كان الانسان يرى ثلاثة خزانات ضخمة من الزنك تنساب منها المياه الساخنة والباردة فى أنابيب الى صنابير المغسل بالدور الارضى ، وفوق هذه الخزانات كان ثمة طابق آخر للتجفيف .

ودفعت جرفيز اجر الدخول للرجل الضخم الجالس بالباب ، ثم دخلت الى قاعة هائلة مغلفة ببخار الماء ، ومزدحمة بالنساء الجالسات أمام الصنابير والاحواض يغسلن الملابس بالمضارب ، ويتبادلن الاحاديث والضحكات ، وبجوارهن الدلاء والاوعية التى يحملن فيها الملابس المغسولة الى المناشر .

وما كادت جرفيز تأخذ طريقها الى حوض خال وهى تزداد عرجا لفرط احساسها بالارهاق ، اذا بصوت مدام بوش البوابة تقول لها :

– تعالى هنا بجانبى يا عزيزتى .

ولما أخذت مكانها بجوار مدام بوش على الجانب الايسر من القاعة ، اخذت البوابة تحدثها بعبارات متقطعة وهى منهكمة فى عملها . وكانت تقول :

– هذا هو مكانك .. احتجزته لك . ولن اطيل فى عملى هنا . ان موش لا يلوث ملابسه الى حد كبير وانت ايضا سوف تفرغين

من عملك بسرعة ، فان كمية الملابس التى معك قليلة كما أرى ، ويمكننا ان نفرغ من عملنا فى الثانية عشرة ثم نتناول غداءنا . وقد اعتدت أن أعطى ملابسي المغسولة الى كواءة فى شارع بوليت ، ولكنها تفسدها بمساحيق التنظيف وسوء الكى .

وعلى هذا النحو ظل الحديث جاريا بين المرأتين ، ولما رأت مدام بوش طريقة جرفيز فى غسل الملابس ، قالت لها :

ـ انك بارعة حقا .. ولا عجب ، فقد كنت تشتغلين فى محل غسيل وكى ببلدتك ! اليس كذلك ؟

وردت جرفيز قائلة بصوت مرتفع حتى تسمعها مدام بوش فى ضجيج المغسل :

ـ نعم .. نعم .. كنت كذلك فى بلدتى بلاسان .. هل تعرفين بلاسان ، انها بجوار مرسيليا ، وكنت اغسل الملابس وانا فى العاشرة من عمرى ، أى منذ اثنى عشر عاما .. ولكن العمل هنـــاك ، فى الهواء الطلق وبجوار الجدول ، أفضل منه هنا فى هذا الجو الخانق .

وقالت مدام بوش وهى تعمل يديها فى الغسيل بقوة :

ـ لهذا انت قوية كالحصان وان كانت ذراعاك كذراعى سيدة مترفة !

وبعد لحظات من الحديث على هذا النحو ، قالت جرفيز لصديقتها بصوت خافت ردا على سؤالها :

ـ لا .. اننى ولانتيير لم نتزوج بعد . هذه هى الحقيقة التى لا داعى لانكارها ، ولولا الولدان لما رضيت أن اتزوج هذا الشاب الفاسد .. لقد كان فى الثامنة عشرة من عمره وكنت فى الرابعة عشرة عندما انجبنا الولد كلود ، وجاء الثانى بعد اربعة أعوام . وهى المأساة المعروفة .. لم اكن سعيدة فى حياتى مع أمى وزوجهـا العجـوز ماكارت . لقد ظل العجوز السكير يضربنى بمناسبة وبغير مناسبة حتى جعل حياتى جحيما . ولهذا كنت ألتمس الحنان فى الخارج . وقد خدعنى لانتيير بحديثه المعسول وانا فى الثالثة عشرة من عمرى .. وهذه هى النتيجة :

والتمعت عينا مدام بوش بالرضى بعد أن اشبعت فضولها ثم قالت برفق :

ـ هل يسيء معاملتك الان ؟

ـ كان فى أول الامر لطيفا حانيا .. ولكن منذ ان جئنا الى باريس وهو يعاملنى بغلظة وقسوة . لقد جاء بى الى باريس بعد وفاة والدته فى العام الماضى وحصوله على مبلغ سبعمائة فرنك قيمة نصيبه فى الميراث ، ووافقت على المجيء حين وعدنى بأن يفتتح لى محلا خاصا للغسيل والكى ، وان يعمل هو فى صناعته .. أى فى صناعة القبعات. ولكن لانتيير كسلان بطبيعته .. لا يطيق العمل مادام لديه مايكفيه يوما واحدا .. وهكذا اخذ ينفق المبلغ الكبير على ملذاته .. وبدأنا الاقامة في فندق فاخر فى مونمارتر ثم ظللنا ننتقل من فندق فاخر الى فندق متوسط ، ومنه الى هذا الفندق الحقير الذى نقيم فيه الان . وقد أصبحنا لا نجد شيئا من الطعام الا اذا رهنا بعض ملابسنا ..

وتحشرج صوتها بالبكاء ، وطفرت الدموع الى عينيها ، ومن ثم نهضت وهى تقول :

ـ معذرة . ساذهب لاحضار بعض الماء الساخن

ولكن مدام بوش التى سرها أن تغدو موضع ثقة هذه الصديقة ، امسكت بذراعها ثم هتفت على أحد عمال المغسل قائلة :

ـ هلم يا شارلى .. احضر بعض الماء الساخن لهذه السيدة .. انها متعجلة . ولما أحضر العامل ـ وكان غلاما ـ جردل الماء الساخن ، تبرعت مدام بوش لصديقتها بكمية من الصودا الكاوية لتنظيف الغسيل ثم قالت متوجهة بالحديث الى لانتيير :

ـ لا شك انه يحب المرور .. ومغازلة النساء

ـ نعم .. لقد لاحظت فى الايام الاخيرة ما يؤكد لى هذه الحقيقة

ـ وهذا مالاحظته ايضا ياعزيزتى ..

ولما رفعت جرفيز وجهها الشاحب فى تساؤل ، أسرعت البوابة تقول كأنما تريد أن تخفى شيئا :

ـ لا . لا . كل مالاحظته انه كان يعبث قليلا مع الاختين الساكنتين فى عمارتنا . آديل وفرجينى .. هذا هو كل شيء

وزمت جرفيز شفتيها ، وقطبت جبينها ، وارتسم الهم العميق

فى عينيها ، ومن ثم قالت البوابة مواسية :

ـ اعتقد من ناحيتى انه سيعقد قرانه عليك يا عزيزتى ، اننى واثقة بهذا

ومسحت جرفيز جبينها ، واستمرت فى عملها صامتة . واخيرا قالت مدام بوش بارتياح :

ـ لقد فرغت من عملى ، دعينى اساعدك قليلا يا عزيزتى

ـ لا لا .. شكرا .. لقد أوشكت ان افرغ انا ايضا من عملى . ولكن البوابة أصرت على مساعدتها . وفى تلك اللحظة ، دخلت فتاة طويلة القامة خمرية البشرة ، حسناء ، ترتدى ثوبا اسود . ولما رات جرفيز ، اشاحت بوجهها وتجاهلتها . وهنا قالت مدام بوش :

ـ اه .. هذه فرجينى .. ماذا جاء بها الى هنا .. انها لا تملك اكثر من الثوب الذى ترتديه وبضع قطع من الملابس البالية !

ثم أردفت هامسة :

ـ انها مثال للكسل . هى واختها . تفضلان التسكع فى الطرقات واصطياد الرجال على العمل الشريف . انهما بلا ام او أب او اهل . ولا ادرى من اين جاءتا . ولكن انظرى اليها .. انها تسير وكأنها اخت بونابرت !

ولاح بوضوح ان مدام بوش أرادت ان توطد صداقتها بجرفيز على حساب فرجينى واختها . وذلك رغم ان الاختين كانتا لا تترددان فى تقديم بعض كئوس الشراب للبوابة وزوجها كلما تيسر لهما بعض المال

وفجأة استدارت فرجينى وعادت تمشى بجوار جرفيز وهى تنظر اليها فى تحد . ولما رأت مدام بوش الاثنتين تتبادلان هذه النظرات المتحدية ، قالت لجرفيز :

ـ دعينا منها .. هلم نفرغ من عملنا لنخرج من هنا

وفى تلك اللحظة قال الغلام شارلى عامل المغسل :

ـ هنا طفلان يريدان أمهما :

ونظرت جرفيز ، فرأت طفليها ، كلود واتيين ، يتقدمان نحوها جريا حين رأياها .. وكانا يبكيان بحرقة . وأسرعت جرفيز اليهما تقول فى لهفة :

ـ ماذا حدث .. هل أرسلكما ابوكما ؟

ولمحت فى يد كلود مفتاح الغرفة ، فقالت بدهشة :

ـ عجبا ! لماذا احضرت هذا المفتاح معك ؟

فصاح الطفل قائلا وهو يشهق بالبكاء :

ـ لقد ذهب أبى

ـ تعنى انه ذهب لاحضار طعام الغداء . أليس كذلك ؟

وصمت كلود برهة كأنما يتردد فى مصارحة أمه ، وأخيرا قال :

ـ لا .. لقد ذهب نهائيـــا .. نهض من السرير وجمـــع حاجاته ووضعها فى الحقيبة الكبيرة وذهب فى مركبة ..

ووقفت جرفيز ببطء وقد شحب وجهها ، ثم وضعت يديها على جانبى راسها كأنما تخشى عليه من الانفجار ، وتمتمت فى ذهول :

ـ يا الهى . يا الهى . يا الهى ..

وحاولت مدام بوش أن تواسيها .. ولكن جرفيز هزت راسهـــا وقالت بصوت جاف :

ـ آه لو كنت تعلمين ؟ . لقد جعلنى اليوم فقط أرهن بعض ملابسى ومطرفى لاحضر له خمسة فرنكات . لاحضر له المبلغ اللازم لهربه منى .. ومن ولديه ! !

وانفجرت باكية .. وقالت البوابة :

ـ كفى . كفى . ان النساء هنا يرقبنك . أتظنين انه يستحق هذا الحزن كله ؟ اذن فانت لا تزالين تحبينه . يا عزيزتى المسكينة . لقد كنت غاضبة عليه منذ لحظة ، والان تبكين من اجله .. ما أشد حماقتنا نحن النساء !

ثم اردفت قائلة فى عطف الام :

ـ لا تنسى انك شابة وجميلة ويكفى ان تشيرى باصبعك الى اى شاب مجتهد مستقيم ليتزوجك .. ارجوك أن تكفى عن البكاء ، ان فرجينى جاءت لتتسلى بالنظر اليك .. اننى اعرف أن لانتيير كان عشيقا لاختها فى الايام الاخيرة .. ولا شك انه هرب معهـــا ، وقد جاءت هذه البغى لتشاهد وقع الصدمة عليك . انظرى . انها تبتسم شامتة ..

ورفعت جرفيز وجهها المخضل بالدموع ، ورات فرجينى واقفة

ين امراتين تبتسم وتهمس لهما . وسرعان ما تناولت جرفيز جردل ماء ممتلئا وتقدمت به نحو فرجينى التى هتفت وهى تتراجع :

ـ ابتعدى يا فاجرة

وقذفت جرفيز بالماء على فرجينى ، ولكنه لم يصل الا الى قدميها !

وصاحت الفتاة فى ثورة :

ـ انها مسكينة . فقدت عقلها ..

ووقفت جرفيز معقودة اللسان ، لانها لم تكن قد استوعبت بعد قاموس الشتائم المعروف فى الاوساط الشعبية الباريسيـــة . اما فرجينى فقد استطردت تقول :

ـ انظرى اليها ؟ لقد كانت سجينة فى بلدتها .. كانت عشيقة لجندى وهى فى الثانية عشرة . ويبدو انها نسيت احدى ساقيها فى بلدتها .. وهذا سر عرجها

وتشجعت فرجينى حين سمعت الضحـــكات تنطلق حولهـا ، فاستطردت قائلة بمزيد من السخرية والتهكم :

ـ لماذا تنظرين الى هكذا ؟ اذا كانت لديك ذرة من الشجاعة فتقدمى نحوى .. تقدمى ، لكى أجعل الجميع هنا يشاهدون ملابسك الداخلية القذرة ..

وقالت جرفيز فى النهايه بصوت محشرج :

ـ لا تكثرى من الثرثرة . انك تعرفين تماما اين كان زوجى فى الليلة الماضية . اخرسى والا خنقتك بيدى هاتين

وصاحت فرجينى قائلة فى تهكم وسخرية

ـ زوجها ؟ هاها .. ان السيدة تقول عن لانتيير انه زوجها ؟ هذه احدث فكاهة ! هل يمكن ان يكون لبغى مثلها زوج ؟ اذا كان قد لفظك فهذه ليست غلطتى . اننى لم أسرقه على كل حال .. فتشينى اذا شئت . هل تريدين الحقيقة ؟ لقد كدت ان تقتليه . انه شاب ممتاز . ما انت جديرة بمثله . هل رات احداكن زوجها ؟ جائزة لمن تعثر عليه ..

وغمغمت جرفيز بعد ان هدات عاصفة الضحك :

ـ انت تعرفين اين هو .. انها اختك الفاجرة .. لسوف اقتلها .

ـ اذن لماذا لا تفعلين . اذهبى واقتليها . ولكن لا تنسى انها اجمل

منك الف مرة . والان دعينى اغسل ملابسى فى هدوء .. اننى لا اريد ان اضيع وقتى فى الحديث مع امراة صغيرة مثلك

ولكن فرجينى لم تستطع ان تتوقف عن السخرية والتهكم بعد ان رات نجاحها بين النساء الاخريات ، فقالت :

ـ انها اختى حقا .. ولكن ما شأنك انت . ان لانتيير يحبها .. وهى تبادله الحب . أتمنى لو انك رايتهما يتبادلان القبل والعناق . ان للانتيير العذر فى هربه منك .. ماذا يفعل بامراة مثلك ؟؟

وصرخت جرفيز فى ثورة غضب هائلة :

ـ اخرسى . اخرسى والا قتلتك !

ثم تناولت جردل ماء بسرعة وقذفت بما فيه فى وجه فرجينى التى هتفت قائلة فى حنق :

ـ لقد بللت البغى ملابسى . حسنا . لسوف ترين ماذا سانزل بك

واخذت المراتان تتبادلان قذف الماء والشتائم بين هتاف النساء وضحكاتهن

وفجاة تناولت فرجيني جردل ماء ساخن وقذفت بما فيه على جرفيز . وصرخت النسوة :

ـ لقد أحرقتها .. لقد احرقتها ..

ولكن الماء الساخن لم يسقط الا على ملابس جرفيز التى جن جنونها فقذفت بجردل فارغ على فرجينى واصابتها فى ساقها وجعلتها تسقط على ارضية المغسل صارخة :

وصاحت بعض النسوة :

ـ لقد كسرت ساقها .. يا للهول .

ـ ولكن فرجينى ارادت أن تقتلها بالماء المغلى

ـ ولها العذر .. ماذا تفعل بعد أن سرقت أختها رجلها ؟

واخذ الطفلان يبكيان وينا ديان على أمهما .. واسرعت مدام بوش وامسكت بثوب جرفيز حين رات فرجينى على الارض ، وقالت لها :

ـ هذا يكفى .. لقد ثأرت لنفسك . يا الهى . اننى لم أر شيئا من هذا القبيل فى حياتى

ولكن فرجينى كانت قد وثبت وامسكت بعنق جرفيز وحاولت ان تخنقها . واستطاعت جرفيز ان تخلص عنقها من قبضتى فرجينى ،

لم امسكت بخصلات شعرها . واخذت المرأتان تتعاركان فى صمت وقسوة وعنف . كل منهما تحاول ان تمزق الاخرى . تمزق ملابسها او شعرها او وجهها . وانبثقت الدماء الاولى من وجه جرفيز عندما خدشتها فرجينى باظافرها الطويلة المدببة ، واستطاعت جرفيز ان تطلق الدماء من اذن فرجينى حين انتزعت منها قرطا معدنيا وصاحت بعض النسوة :

ـ ان كلا منهما ستقتل الاخرى .. يجب ان نفرق بينهما

ولكن النسوة المتفرجات ابين ان يقتربن من المتعاركتين حتى يصيبهن سوء ، واسرعت مدام بوش الى بواب المغسل ، الرجل الضخم وقالت له :

ـ هلم ياجاك . حاول ان تفرق بينهما . ام تريد ان ترى جريمة ترتكب امامك هنا ؟

وابتسم البواب الضخم وقال وهو ينظر الى المرأتين بعينين شرهتين

ـ لا تجزعى .. ان المنظر ممتع .. اننى اريد ان ارى ما تحت ملابسهما الداخلية ؟ يا للفتنة . لم اكن اظن ان مدام جرفيز بضة الجسم كالزبدة الى هذا الحد ! .

وكانت اجزاء كثيرة من جسد جرفيز قد بدت وشفت عن بشرة بيضاء ناعمة مشربة بالحمرة من فرط الهياج .

وفجأة التقطت فرجينى مضرب غسيل وانهالت به على ظهر جرفيز وهى تصرخ قائلة :

ـ لسوف أعلمك الادب ايتها الفاجرة

وسرعان ما أمسكت جرفيز بمضرب اخر ، وشرعت الاثنتان تتبارزان بالمضارب . وكلما أصابت احداهما الاخرى ، هتفت النسوة المتفرجات :

ـ واحد لفرجينى ..

ـ اثنان لجرفيز ..

ـ ثلاثة لفرجينى ..

ولكن مدام بوش أسرعت بالطفلين الباكيين الى خارج المغسل . وبعد انصرافها بقليل اصابت فرجينى ذراع جرفيز بحافة المضرب ،

فصرخت هذه من فرط الالم وقد بدأت ذراعها تنتفخ. وصاحت بعض النسوة :

ـ هذا يكفى .. يجب ان يوضع حد لهذه المعركة الدموية ولكن احداهن لم تستطع الاقتراب من جرفيز حين رأين سورة الغضب الجنونى الهائل ترتسم على وجهها المنتفخ ، وحتى فرجينى شعرت بالفزع من منظر جرفيز وحاولت ان تبتعد عنهـا ، ولكن جرفيز أمسكت بها فى ثورة رهيبة واسقطتها على وجهها ، ثم مدت يدها فى فتحة ثوبها الخلفية وجذبت الثوب من اعلى الى اسفل حتى بدت فرجينى عارية الظهر تماما .. وهنا تناولت المضرب وراحت تنهـال بالضرب على الجسد العارى وتقول :

ـ هذه لك . وهذه لاختك . وهذه للانتيير . عندما ترينهما ، قدمى اليهما هذه التحية نيابة عنى . انتظرى . لنعد من جديد . هذه للانتيير ، وهذه لاختك . وهذه لك

وتقدم البواب جاك فى النهاية وانتزع فرجينى من براثن جرفيز . وسرعان ما انطلقت فرجينى هاربة كالكلب المقهور المغلوب على امره وهى تنخرط فى بكاء حار وتحاول أن تخفى جسدها العارى ببقايا ثوبها الممزق ..

وجمعت جرفيز ملابسها ، ولملمت اطراف ثوبها ، وسارت مع مدام بوش الى خارج المغسل حيث كان الطفلان فى انتظارها

ولما وصلت بهما الى اول الشارع الذى يقع فيه فندق بونكير ، انسابت دموعها رغما عنها . وكان شارعا مظلما ضيقا .. لقد اعادت رائحته الى ذاكرتها الاسبوعين اللذين امضتهما مع لانتيير فى حياة كلها البؤس والشقاء

وهناك ، فى غرفة الفندق المستأجرة ، وجدت لانتيير قد أخذ معه كل شىء له قيمة .. حتى ايصالات الرهونات لم يتركها وراءه .

وبلغ بها اليأس والحزن حدا جعل الدموع تتحجر فى مآقيها ، ونظرت من النافذة الى باريس . الى المدينة الرهيبة . وحاولت ان تتخيل ما ينتظرها هى وولديها ، فلم تستطع .. لقد رأت أن حياتها معهما ستظل محصورة بين المجزر القريب .. والمستشفى الذى كان العمل فى انشائه جاريا !

الفصل الثالث

مشـــروع زواج

وبعد ثلاثة أسابيع .. وفى الساعة الحــادية عشرة والنصف صباحا ، كانت جرفيز وكوبيو السباك يتناولان بعض النبيذ فى حانة بيير كولومبس . وكان كوبيو يدخن سيجارته خارج الحـانة عند ما رآها مقبلة فى الطريق تحمل بعض الملابس الى غرفتهــا فى الفندق . واعترض مسيرها ، والح عليها لتقبل ان تشرب معـه بعض النبيذ فى الحانة . وقبلت دعوته ، وجلست معه الى مائدة من الزنك ، ووضعت بجوارها السلة الكبيرة التى تحمل فيهــا الملابس المعدة للغسيل والكى .

وكانت حانة بيير كولومبس تقع فى مفترق شارعى دى بواسونير وروشيكورت . وكانت الحانة فى هذه الساعة من الظهيرة شـبه خالية من الرواد . وكان صــاحبها كولومبس واقفا بجســمه الضخم يبيع لفتاة فى الثانية عشرة كمية من النبيذ ثمنهـا اربعـة دراهم ، كانت تحملها فى قدح الى ابيها . وكانت الشمس تدخـل من الباب وتدفىء الارضية الرطبة تحت الاقدام . أما جـوها فكان مشحونا برائحة الخمر ودخان السجائر .

واشعل كوبيو سيجارة اخرى وهو يبتسم فى وجـه جرفيز . وكان شابا فى نحو السابعة العشرين ، على شىء من الوســامة ، مستقيم الشعر ، ناعم البشرة كعذراء ، وكانت جرفيز جالسة امامه بشعرها الذهبى ، وجمالها الفاتن وابتســـامتها الحزينة . وكانت مائدتهما قريبة من مدخل الحانة .

ولما فرغ كوبيو من اشعال سيجارته ، وضع مرفقيه على المائدة وانحنى الى الامام ، وراح ينظر الى جرفيز برهة طويلة فى سكون، ويتأمل بشرتها الصافية التى بدت فى تلك اللحظة كأنها مصــنوعة

من الخزف الثمين ، واخيرا وجه اليها السؤال التالى عن موضوع طالما تبادلا الحديث فيه :

ـ اذن فانت ترفضين ..؟ مصرة على الرفض :

فقالت جرفيز وهى تحاول الابتسامة فى هدوء :

أوه .. ارجوك يا مسيو كوبيو . لا داعى للعودة الى الحديث فى هذا الامر . لقد وعدتنى قبل دخولنا ان تتجنب الحديث عن الزواج ، ولو كنت اعلم انك ستفاتحنى فيه ، لما قبلت دعوتك .

ولم يقل هو شيئا . وانما ظل ينظر اليها فى شوق ولهفة ، ويركز نظراته على شفتيها الورديتين ، المرطبتين بالنبيذ ، وبينما بقيت هى فى مكانها ، تبتسم فى هدوء وثقة .

وعادت هى تقول :

ـ انك حقا لا تعنى ما تقول .. انك لست جادا فى عرضك الزواج على .. اننى أصبحت عجوزا بالنسبة لك .! لا تنس أن لى طفلا فى الثامنة من عمره . فماذا نفعل معا ؟

فهتف قائلا :

ـ اللعنة على كل شىء .. نفعل ما يفعله الازواج والزوجات فى كل الدنيا .

فقالت بلهجة لا تخلو من الاستياء :

ـ اذا كنت تظن ان الحياة مجرد علاقات جنسية بين الازواج والزوجات فانت مخطىء قليل التجارب . أن اعباء الحياة الزوجية تنتزع البهجة من كل علاقة جنسية . اننى اصبحت انظر الى الحياة نظرة جادة . حقا ان البحث عن المتعة شىء بهيج ، ولكن ثمنه غال جدا .. ثم كيف أربى ولدى بالانغماس فى اللهو والمتعة ؟. لقد تعلمت من سوء حظى درسا لا انساه . وهذا الدرس يحتم على ان انفض يدى من الرجال نهائيا .. نعم ، لن اسمح لرجل ان يوقعنى فى الفخ مرة اخرى .

وكانت تتحدث ببساطة وواقعية دون أن تجعل فى صوتها اى اثر للمرارة أو الغضب ، تماما كما لو كانت تتحدث عن كيفية ازالة بقعة حبر من قميص .

وقال كوبيو مرددا فى رفق :

ـ لشد ما تحزنيننى بحديثك هذا .. !!

ـ نعم .. اننى ارى هذا على وجهك ، وانى لاسفة من أجلك يا مسيو كوبيو . أرجوك الا تسىء فهم حديثى . فلو كانت بى أية رغبة للزواج لتزوجتك انت دون غيرك . فأنت لطيف معى دائما ، وطيب القلب كما أرى . واعتقد ان فى أمكاننا ان نعيش سعيدين لو تزوجنا . ولكننى لا اشعر بأية رغبة فى الزواج . بل لا أريد أن أغير مجرى حياتى الرتيبة الهادئة الان . اننى اعمل منذ اسبوعين فى محل مدام فوكوفير للغسيل والكى ، وولداى فى المدرسة ، ونحن ونحن نجد ما نأكله الان دون ان نضطر الى رهن ملابسنا وأنا لا أريد من الحياة اكثر من هذا .

ثم انحنت لتتناول سلة الغسيل ، واردفت قائلة ،

ـ لقد حجزتنى لتتحدث معى بينما تنتظرنى مدام فوكوفير . هلم ياصديقى لا شك أنك ستجد فتاة أجمل منى بكثير ، وليس لها أولاد مثلى ..

ونظر كوبيو الى الساعة الكبيرة المعلقة على الجدار ، ثم قال وهو يمسك يدها ليحتجزها :

ـ انتظرى لحظة ارجوك .. ان الساعة لا تتجاوز الحادية عشرة وخمسا وثلاثين دقيقة . ولا يزال أمامى نحو نصف ساعة حتى أعود الى عملى .. اجلسى معى برهة اخرى وانا أعدك بأن أكون مهذبا معك . أن المائدة بيننا كما ترين .. أم لعلك تكرهين الجلوس معى ؟!

وأعادت السلة الى مكانها حتى لا تبدو غليظة فى معاملتها له ثم أخذت تبادله حديثا وديا بعيدا عن الحب والغزل والزواج . وكانت هى اثناء هذا الحديث تنظر من النافذة الى جموع العمال والعاملات وهم يتدفقون فى الطرقات الى المطاعم والحانات لتناولوا وجبة الظهيرة .

وتحول الحديث الى لانتيير ، وقالت جرفيز ردا على سؤال من كوبيو ؟

ـ لا تكن سخيفا . انك تفكر فقط فى هذه العلاقة الحيوانية .

كنت احبه طبعا . ولكن بعد أن هجرني بهذه الطريقة الوحشية ..

ولم تكن جرفيز قد رأت لانتيير بعد هجره لها . ولكنها أيقنت من مصادر عديدة أنه يقيم مع أديل ـ أخت فرجيني ـ في شارع لاجلاسيير وفي بيت صديق له كان ينوي ان ينشىء مصنعا للقبعات. ولم يكن لديها اي استعداد لان تذهب اليه او تطارده او تحاول استرداده . لقد حزنت في أول الامر حزنا شديدا . بل لقد فكرت جديا في القاء نفسها في النهر . ولكنها لم تلبث ان ادركت ان ما حدث كان في صالحها وصالح الولدين . لقد عرفت لاول مرة ، بعد غيابه ، معنى الاستقرار .. معنى اكتساب الرزق بالعمل الشريف . ولعلها ما كانت لتستطيع ان تربي ولديها لو أنه بقي معها متلافا مسرفا عاطلا ! ان من حقه ان يأتي اذا أراد لرؤية ولديه منها ، كلود واتيين . انها لن تمنعه . اما هي ، فلن تسمح له بأن يلمسها بأطراف أصابعه . نعم .. هذا هو رأيها النهائي .. وهذه هي الخطوط الرئيسية التي رسمتها لحياتها في المستقبل .. أن تعمل .. وتربي ولديها .. ولا تسمح للانتيير بلمسها مرة أخرى ، ولا لاي رجل اخر أن يكرر العبث بها .

وكان كوبيو ينصت اليها ويبتسم ويقاطعها بين الحين والاخر ببعض العبارات المثيرة للضحك ، ولكنه لم يكف لحظة واحدة عن اشتهائها وعن اللهفة الى أخذها بين ذراعيه .

وقال لها باسما :

ـ لقد كنت أنت القاسية معه .. كنت تضربينه كما تضربين كل من يثير غضبك !!

وانفجرت هي في ضحكة جزلاء وتذكرت ضربها لتلك الفتاة الكبيرة الجسم فرجيني ، وكانت تشعر انها على استعداد لان تضرب اي انسان اخر يثير غضبها . وكان كوبيو قد ذكر لها ان فرجيني، بعد فضيحة هزيمتها في المغسل ، تركت الحي كله واختفت .

وهزت راسها ، ومدت يديها البضتين وقالت لكوبيو انها لا تستطيع في الواقع أن تضرب أحدا بمثل هاتين اليدين الناعمتين ، ولكنها لا تدري كيف استطاعت أن تضرب فرجيني بمثل هذه الثورة . ثم راحت تتحدث عن طفولتها في بلدة بلاسان ، فقالت

انها لم تكن واحدة من اللاتى يجرين وراء الرجال . ولكن عندما اغتصبها لانتيير وهى فى الرابعة عشرة من عمرها ، شعرت بابتهاج لانه وعدها بالزواج ، وقال انها تعتبر منذ تلك اللحظة زوجته الحبيبة الصغيرة . وكانت منذ طفولتها - كاية طفلة عادية - تحلم بان تكون زوجة وربة بيت . ثم قالت ان ما حدث لها كان نتيجة طبيعية لرغبتها فى استرضاء الناس ، وفى ان تكون دائما على وفاق معهم ، ومن ثم فهى اذا احبت رجلا . فانها لا تحبه لكى تلهو معه ، وانما لتكون زوجة له . ولما ضحك كوبيو وذكرها بولديها قائلا انها طبعا لم تعثر عليهما بجوار الكنيسة ، ركلته برفق فى قدمه وقالت انها لا تنكر ابدا انها مصنوعة من نفس طينة البشر ، وان لها رغباتها ونزواتها واشواقها التى تشكل حياتها . ولكن من الخطأ ان يظن احد ان المراة لا تفكر الا فى العلاقة الجنسية .. انها ، مثل امها ، كانت تحلم بالحياة الزوجية وادارة البيت واكتساب الرزق بالعمل الشريف . وقد كانت امها من هواة العمل واكتساب الحق بعرق الجبين . وقد ماتت وهى تضع طفلها السابع . ثم تحدثت عن زوج امها ، العجوز ماكارت ، السكير ، الذى اعتاد ان يضرب امها فى كل ليلة ، وهو سكران ، حتى حطم حياتها . وقد اصابتها وهى طفلة ، احدى ضرباته على فخدها ، ومنذ ذلك الحين وهى تعرج . وعندئذ قال كوبيو مجاملا :

- تأكدى ان احدا لا يكاد يلحظ انك تعرجين ..

ولكنها هزت راسها وقالت انها تعلم تماما ان عرجها ملحوظ ، وانها حين تبلغ الاربعين من العمر ستكون محنية القامة . ثم ضحكت واردفت قائلة :

- من العجيب ان تحب امراة عرجاء يا مسيو كوبيو !

وهنا ازداد انحناء عليها ، وراح يصب فى اذنيها سيلا من حديث الهوى ليجتذب عواطفها . ولكنها صمدت فى موقفها .. وكانت تنظر من النافذة وتنصت الى حديثه باذن واعية .. راضية .. وما كان فى مقدورها ، او مقدور اية امراة فى مثل ظروفها ، ان تغضب من نفحات الحب وهى تتهادى الى سمعها .

واقبل فى تلك اللحظة ثلاثة عمال ، كان احدهم - ويدعى

ميبوتس ـ صديقا لكوبيو .. وبعد ان تبادل معه حديثا خاطفـا ، انضموا ـ العمال الثلاثة ـ الى رواد الحانة .. وكانت قـد بدأت تزدحم ورائحة الخمر تزداد فى الجو ، مما جعل جرفيز تقـول فى امتعاض بصوت خافت :

ان الاسراف فى شرب الخمر شيء فظيع .

ثم قالت انها اعتادت فى بلدتها بلاسان ان تشرب خمر الانسيت ، ولكنها مرضت منها وكرهتها ، وكرهت كل انواع الخمـور .. ثم أشارت الى الكأس الموضوعة أمامها وقالت :

ـ وهذا هو السبب فى انى تناولت المشهيات المصاحبة للكاس دون ان اشرب الا جرعة صغيرة .

وقال كوبيو ، بدوره ، انه لا يدرى كيف يستطيع بعض النـاس ان يشربوا الكأس بعد الكأس وكأن فى أعماقهم بالوعة لا تمتلىء . ثم اردف قائلا انه يشرب النبيذ بين الحين والآخر ، اما الكحوليات المركزة مثل الابسنت والبراندى وغيرهما فانه لا يطيق شربهما مهما تعرض لسخرية اخوانه وزملائه وتندرهم عليه . ولهذا اعتاد أن ينتظـر اصدقاءه خارج الحانة حتى يفرغوا من ملء بطونهم بالكحوليـات المركزة ، ثم قال ان كراهيته للخمر ترجع الى أن أباه ـ الذى كان سباكا مثله ـ سقط وهو سكران ، اثناء عمله فى سطح المنزل رقم ٢٥ بشارع كوكينارد وتحطم رأسه على الافريز ومات لساعته . ومنذ ذلك الحين وهو ـ اى كوبيو ـ يفضل ان يشرب مياه البالوعات على شرب الخمر .. لا سيما كلما مر بالشارع الذى وقعت فيه الحادثة

واختتم حديثه قائلا :

ـ ان مهنتى تحتاج الى رجل لا يفقد وعيه بالخمر

وقالت جرفيز بعد أن اثارت كلماته فى نفسها مختلف الذكريات والافكار :

ـ اننى كما تعلم متواضعة فى آمالى ومطامحى . وكل ما ارجـوه من الحياة ان أعمل بهدوء وان أجد خبزى اليومى وان انام فى ركن نظيف . فى غرفة بسيطة بها سرير نظيف ومائدة وبضعـة مقاعد وصوان ملابس ومدفاة . لا اريد اكثر من هذا . لا اريد اكثر من ان أربى ولدى تربية صالحة .. واذا حدث وعشت مع زوج ، فلا أطمع

فى اكثر من ان أعيش معه بهدوء وسلام .

وتوقفت عن الحديث لحظة كأنما تفكر فيما تريد من الحياة اكثر من هذا . ولما لم تجد ، اردفت قائلة :

ـ نعم .. لا اريد الا ان اموت فى نهاية عمرى وانا راقدة فى سرير نظيف . وحسبى ما لقيته حتى اليوم من عناء الحياة

ثم تناولت سلتها ونهضت واقفة . ونظرت الى الساعة فى قلق ، ثم الى الحاجز الخشبى الذى تقوم وراءه آلة تقطير الخمر الهائلة .

وراح كوبيو يشرح لها طريقة عمل هذه الالة الجهنمية فى تقطير الخمر، وتعبئتها فى زجاجات . وارتعدت جرفيز قليلا وهى تنظر الى جهاز التقطير ، ثم قالت :

ـ اننى اشعر بالخوف يسرى فى دمائى وانا انظر الى هذا الجهاز الذى حطم حياة عدد لا يحصى من الرجال والنساء

ثم عادت الى الحديث عن رأيها فى السعادة الكاملة ، فقالت :

ـ الا تتفق فى الراى معى ؟ الا ترى ان احسن شىء فى الدنيا يجلب السعادة للانسان هو ان يجد الانسان عملا يرتزق منه ، وان يحصل على خبزه اليومى ، وان يرقد فى ركن نظيف ، وأن يربى اولاده ، ثم يموت فى فراشه

وقال كوبيو مكملا فى مرح :

ـ والا يتعثر فى حياته ويرهن ملابسه ليحصل على ثمن الخبز او الخمر !

حسنا يا مدام جرفيز .. يمكننى أن أحقق لك هذه الامال البسيطة .. هلم نعقد زواجنا الليلة ونبدأ حياتنا من جديد !

وكان يهمس بهذا الحديث فى أذنها وهما يغادران الحانة وقد امسكت سلة الملابس فى يدها . وهزت هى راسها وقالت باصرار :

ـ لا . لا .

ولكنها كانت تبتسم وتعرب له عن رضائها لانه لا يشرب الخمر مثل زملائه من العمال . ولولا انها اقسمت الا تعاشر الرجال ، لقبلت فى تلك اللحظة اقتراحه ، وتزوجته

ولما وصلت الى الشارع ، قالت وهى تتنهد فى ارتياح :

ـ اه . الان استطيع أن أتنفس مرة اخرى

ثم مدت يدها تصافحه وأردفت قائلة :

ـ طاب يومك يا مسيو كوبيو ·· وشكرا ·· يجب أن أعـــود الى المحل الان .

وقبل ان تنصرف ، أمسك يدها وقال فى رجاء :

ـ مهلا .. ارجوك ان تبقى معى لحظات اخرى .. سيرى معى الى المحل عن طريق لاكوت دور .. ان المسافة ليست بعيدة .. اننى سأزور اختى فى ذلك الشارع قبل ان اعود الى عملى فى بناء المستشفى ويمكننا ان نتمشى معا هذه المسافة .

ووافقت أخيرا . وسارا معا فى شارع دى بواسونير ، جنبا الى جنب ، ولم تقبل ان يأخذ ذراعها فى ذراعه ، وانما أخذت تنصت اليه وهو يتحدث عن اسرته . ان أمه العجوز ـ الخياطة سابقا ـ تشرف على ادارة المنزل بعد ان كل بصرها . لقد بلغت الثانية والستين فى الشهر السابق . وهو أصغر أختيه : احداهما ارملة تدعى مدام ليرات فى السادسة والثلاثين من عمرها ، وتعمل فى صناعة الزهور الصناعية وتقيم بمسكن فى شارع دى موان . والاخرى فى نحو الثلاثين ، وتدعى مدام لوريليو ، امرأة سليطة اللسان ، تقيم مع زوجها صائغ السلاسل الذهبية فى مسكن بشارع لاكوت دور . ومسكنهما يقع فى بيت هائل الحجم على يمين الشارع ، وقد اعتاد ان يتناول عشاءه كل ليلة مع أخته هذه وزوجها توفيرا للنفقات . فهو يدفع لهما أقل مما يدفعه لو تناول عشاءه فى مطعم ، وهما يقدمان له من الطعام أقل مما يعطيهما فى الشهر . وهو ذاهب الى بيت أخته الان ليقول لها انه لن يتناول عشاءه معها الليلة ، لانه مدعو للعشاء مع صديق

وتوقف فجأة فى شارع كوت لادور بعد أن قطعا منه نحو مائة ياردة واشار الى بيت هائل الحجم وقال :

ـ هذا هو البيت . انه يبدو من الداخل كالثكنة العسكرية .

ونظرت جرفيز الى البيت تفحصه من الخارج . وكان مكونا من خمسة طوابق ، فى كل طابق خمس عشرة نافذة فى خط مستقيم ، ذات مصاريع خشبية سوداء مهشمة . وفى الطابق الارضى ، على الشارع خمسة دكاكين ، كلها على يمين المدخل · اثنـــان منها مطعم قذر . والثالث لفحام ، والرابع لتجارة الخردوات ، والخـامس

لبيع المظلات . ولفت نظر جرفيز مدخل البيت . وكان مدخلا ضخما يرتفع الى الطابق الثاني ويؤدى الى فناء واسع مظلم

وقال لها جرفيز

ـ تعالى معى .. ان اختى لن تأكلك

وطلبت منه ان تنتظره فى الشارع حتى يعود ، ولكنه الح عليها فى الصعود معه . الا انها وافقت فقط على أن تدخل معه الى الفناء وتنتظره . وفى الفناء ، وقفت مذهولة تتلفت حولها الى الدكاكين الداخلية التى كانت بمثابة مصانع صغيرة للحدادة والسباكة وغيرها من الحرف اليدوية البسيطة :

ولاح لها ان سكان البيت يعيشون فى داخله ، وكأنهم داخل مدينة صغيرة لا شأن لها بمدينة باريس الهائلة

وخرجت من غرفة البوابة ، امرأة فى مقتبل العمر وقالت لها وهى تفحصها فى ارتياب :

ـ هل تريدين شيئا يا فتاتى ؟ !

ـ لا .. اننى أنتظر شخصا

ثم عادت تفحص بنظرات ملؤها الدهشة ذلك العالم الصغير القائم فى ذلك البيت العجيب . ولم يلبث ان عاد كوبيو لاهث الانفاس وهو يقول لها معتذرا :

ـ هل تأخرت عليك ؟ ! لقد بذلت جهدا عنيفا لاقناع أختى للموافقة على تناولي العشاء فى الخارج الليلة ، لاسيما وقد اشترت كمية من لحم البقر خاصة لى

ولما رأى دهشتها وهى تنظر الى المنزل ، قال :

ـ من حقك أن تدهشى .. لا سيما اذا علمت ان كل ركن فيه مؤجر لبعض العمال او العائلات . وان عدد المستأجرين يبلغ ثلاثمائة. وهو بيت يبعث على الطمأنينة والامن .. ولو كان لدى بعض الاثاث، لاستأجرت لنفسى فيه مسكنا صغيرا .. ان الانسان لا يشعر فيه بالسأم أبدا .

فقالت جرفيز وهى تومىء برأسها

ـ نعم .. أن بلدتنا بلاسان لا يوجد فى شارع منها مثل هذا العدد من السكان

وانتهز كوبيو الفرصة وعاد يعرض عليها الزواج والسكنى فى هذا البيت المزدحم الملىء بالحياة . ولكنها هزت رأسها وأسرعت بالانصراف .

***

ولكن كوبيو لم ييأس .. لقد ظل يطاردها برغبته فى الزواج منها حتى اصبحت تخشاه وتضع وراء باب غرفتها فى الفندق خزانة الادراج خوفا من ان يقتحم عليها الغرفة ذات ليلة ويغتصبها . ومرت الاسابيع وهو لا يكف عن الحاحه ، وهى لا تكف عن الرفض . وفى ذات ليلة من شهر اغسطس ظلا جالسين فى غرفتها حتى الساعة الواحدة صباحا ، فى ضوء سراج خافت ، يتناقشان فى نفس الموضوع بأصوات خافتة حتى لا يستيقظ كلود واتيين النائمين فى هدوء

وكانت جرفيز تثير دائما موضوع الطفلين ، وتصر على ان رسالتها فى الحياة هى أن ترعاهما وتحسن تربيتهما حتى يشبا مواطنين صالحين . وكانت فى هذا الشأن تقول :

ـ أنهما دوطة عجيبة أقدمها لك ؟ أليس كذلك . ماذا يقول الجيران ؟ انهما جميعا يعرفون علاقتى السابقة بلانتيير .. يعرفون اننى انجبت ولدى سفاحا .. فكيف يمكننى ان أقبل الزواج من شاب مهذب لطيف مثلك بعد بضعة شهور من هجره لى ؟

ويرد عليها قائلا انه لا يهمه كلام الجيران ، انه لا يتدخل فى شئونهم، وكل شئونهم قذرة ـ وليس من حق احد ان يتدخل فى شئونه هو .

وحتى لو انها كانت على علاقة بلانتيير قبله ، فماذا فى هذا ؟ انها علاقة كانت اقرب الى الزواج منها الى اى شىء .. انها لم تبع جسدها كل ليلة لرجل مختلف . لقد كانت تعيش كما لو كانت زوجته فعلا امام الله والناس .. وهذا وحده يكفى .. ومن ناحيته هو ، فانه لن يجد أبدا فتاة مثلها . فتاة رقيقة ، مهذبة ، مخلصة ، طيبة القلب ، متواضعة الامال

واخيرا ضرب المائدة بيده وقال :

ـ انى اريدك . اريدك زوجة لى . الا تفهمين . ان سعادتى فى الحياة معلقة على كلمة منك ..

واخذت جيرفيز تلين شيئا فشيئا . وسمحت له بأن يمسك

يديها بين يديه . وساد الصمت برهة . لم يكن يقطعه الا عازف قيثارة من بعيد .. والا بكاء سكير في الطريق .. كان يبكي كطفل .

وضغط كوبيو برفق على يديها ثم قال في توسل :

ـ جرفيز . أرجوك . لماذا تعذبينني الى هذا الحد . الا ترين انني احبك واني على استعداد للتضحية بكل شيء من اجلك ؟

واطرقت براسها . وقال هو :

ـ هه . نعم .. ام لا ؟ !

وغمغمت قائلة :

ـ لشد ما تعذبني بحبك يا كوبيو ؟ حسنا . اذا لم يكن لي مفر من الزواج . فلتكن انت الزوج . وارجو الا اكون قد ارتكبت بموافقتي هذه ، حماقة اخرى

ونهض واقفا ، وامسك بوسطها ، وقبلها بحرارة ، وقالت وهي تختلس النظر الى ولديها النائمين :

ـ حذار .. لا تزعجهما من النوم

وعاد هو الى غرفته بأعلى الفندق . وبقيت هي على حافة فراشها ترتعد . وظلت على هذه الحالة نحو ساعة .. وتنهدت اخيرا وقد ادركت ان كوبيو جاد في عرض الزواج عليها .. لقد كان في وسعه ان ينتهز ضعفها في تلك الليلة وينالها . وما كان في مقدورها ان تقاوم .. ولكن امتناعه عن انتهاز هذه الفرصة كان دليلا على احترامه وجديته في الزواج منها

وظل السكير في الشارع يبكي كحيوان ضال .. وظلت انغام القيثارة تتهادى من الملهى القريب



الفصل الرابع

الركن النظيف

ظل كوبيو خلال الايام القليلة التالية يلح على جرفيز لكى تتعرف باخته فى ليلة ما بشارع كوت لادور . ولكن جرفيز كانت شديدة الاضطراب ، وتشعر بالجزع من فكرة مقابلة مدام لوريليو . ذلك انها كانت قد ادركت بوضوح انها مصدر خوف الاسرة كلها . وعبثا حاول ان يقنعها بأن زواجه ليس من شأن اخته هذه ، بل انها ايضا ليست الاخت الكبرى ، ومن ناحية امه فقد وافقت على زواجه فورا ، لانها اعتادت الا تعارض ابنها فى شئونه الخاصة . اما آل لوريليو فقد كانوا يعتبرون انفسهم رأس الاسرة لان ارباحهم اليومية كانت تتجاوز العشرة فرنكات . وبهذا لم يكن فى مقدور كوبيو ان يتجرأ ويتزوج بدون موافقتهم

وقال لجرفيز فى معرض الاقناع :

ـ لقد تحدثت معهم عنك . وهم يعرفون الآن كل ما نريد ان نفعل ، تعالى لتتعرفى بهم الليلة · انك على استعداد لهذه المقابلة · أليس كذلك . ان اختى قد تبدو باردة بعض الشىء . ولوريليوايضا ليس من الطراز المرح اللطيف . وهما فى الواقع مستاءان لان زواجى سيحرمهما من المبلغ الذى اعتدت ان ادفعه نظير عشائى معهما . ولكن هذا لا يهم . انهما لا يستطيعان ان يطردانك من مسكنهما . ارجوك ان تزوريهما من اجلى . ان هذه الزيارة ضرورية جدا

ولكن هذه الكلمات زادت من فزع جرفيز . الا انها استسلمت ذات ليلة ، وكانت ليلة سبت . وكانت قد استطاعت خلال الاسابيع القليلة السابقة ان تدخر مبلغا بسيطا اشترت به ثوبا لائقا ، ومطرفا حريريا جميلا وحذاء جديدا وقبعة . وقال لها كوبيو وهو يصحبها فى الطريق الى بيت اخته

ـ انهما فى انتظارك . ويبدو انهما خضعا لفكرة زواجى . ومن حسن الحظ انهما فى حالة معنوية طيبة الليلة لانهما تلقياطلبالصنع مجموعة من السلاسل الذهبية تسلم يوم الاثنين

ـ وهل لديهما الذهب فى المسكن ؟

ـ أعتقد هذا .. ان أسلاك الذهب معلقة على الجدران ، وفوق الارضية وفى كل مكان

وصعدت جرفيز مع كوبيو درجات البيت الكبير فى طريقهما الى الطابق السادس . وشعرت براسها يدور وهى تصعد مجموعة من الدرجات ثم تسير فى دهاليز مختلفة ، ثم تصعدمجموعةاخرى، وهكذا .. وكانت الروائح المختلفة تتصاعد من كل مكان ، وغمغمة السكان تنساب من وراء الابواب المغلقة مصحوبة بصلصلة الاطباق والملاعق والسكاكين واوانى الطهو

وبعد رحلة شاقة من الصعود والمرور فى الدهاليز المظلمةالرطبة، قال كوبيو وهو يمسك بيد جرفيز :

ـ لقد وصلنا اخيرا .. كونى على حذر ، والتزمى جانب الجدار ، لم يبق أمامنا غير ثلاث درجات

وسارت جرفيز فى حذر ، ولكنها تعثرت مرتين قبل ان تصل الى الدرجات الثلاث المؤدية الى باب مسكن آل لوريليو . ودفع كوبيو الباب دون ان يطرقه ، وسقطت حزمة من الضوء على الممر ، ثم سار فيما يشبه الدهليز الضيق مع جرفيز حتى وصل الى ستار ازاحه بيديه ودخل الى غرفة كبيرة منقسمة بحاجز خشبى الى قسمين : احدهما للنوم والآخر للعمل

ورات جرفيز رجلا قصيرا بدينا جالسا الى منضدة عليها الكثير من أدوات الصياغة ، وامامه عدد من الحلقات الذهبية ، وبجواره كور مضطرم النيران ، وعلى مقربة منه سيدة بدينة قصيرة ايضا جامدة الملامح ، ممسكة بسلك ذهبى تعمل على شده وسحبه .

وقال كوبيو فى مرح وهو يتقدم نحو اخته وزوجها :

ـ ها نحن وصلنا

ولكنه لم يتلق ردا فى أول الامر . وازداد احساس جرفيز بالاضطراب ، لا سيما حين وجدت نفسها فى هذا المكان «الذهبى»

فحرصت على السير وراء كوبيو مباشرة . وبعد برهة من الصمت الثقيل ، قالت مدام لوريليو :

ـ آه .. اهذا أنت .. اننا مشغولان جدا كما ترى ، لا تتقدم خطوه أخرى حتى لا تلتصق ذرات الذهب بنعل حذائك .. ابق حيث أنت

ثم اردفت قائلة بعد برهة اخرى من الصمت الثقيل :

ـ حسنا .. يمكنك ان تجلس مع فتاتك على المقعد الذى بجوارك اهذه هى السيدة .. حسنا .. حسنا ..

وجلس كوبيو مع جرفيز على مقعد مستطيل وراح يرقب اخته وزوجها وهما منهمكان فى العمل وقد تفصد العرق على جبينهما .

وظل السكون مخيما الا من ازيز الكور ومن حسيس المعادن والآلات . وغمغم لوريليو ببضع عبارات عن طبيعة عمله ، وعن طول الاسلاك التى صنعها من الذهب ، ولكن الحديث لم يتحول الى موضوع الزواج ، ومن ثم شعرت جرفيز بالملل والاختناق فجذبت كوبيو من طرف كمه ، وهمست تطلب منه الانصراف . ونهض كوبيو قائلا لزوج أخته :

ـ لسوف اعتمد عليك يالوريليو لتكون شاهدا عند زواجى .

وارسل لوريليو ضحكة قصيرة متظاهرا بالدهشة ، بينما تركت زوجته عملها وتسمرت فى وسط الغرفة وقد وضعت يديها فى خاصرتيها . وقال لوريليو فى النهاية :

ـ اذن فانت جاد فى موضوع الزواج يا كوبيو ؟ الواقع انك عودتنا على الا نعرف جدك من هزلك ..

وقالت مدام لوريليو بصوت اجش بارد :

ـ أهذه هى السيدة اذن ؟ يا الهى ! اننا من جانبنا لا نستطيع ان نقول شيئا . ولكن الزواج ليس بالامر الهين .. ان احتمال النجاح فيه ضعيف .. ضعيف جدا .. هذا هو كل ما يمكن ان تقوله فى هذا الشان

ثم راحت تفحص جرفيز من راسها الى قدميها قبل أن تستطرد قائلة :

ـ ان لك الحرية الكاملة يا اخى .. وان كانت الاسرة تفضل ـ حسنا .. لا داعى للحديث فى شىء تقرر .. ان الانسان لايصنع

جدره بنفسيه . ولو انك اردت الزواج من احقر امراة فى باريس لما اعترضت عليك . فهذا شانك . المهم اننا لم نقصر فى حقك .. انك الآن فى احسن حال .. ممتلىء الجسم صحة وشبابا ..

ـ الا ترى يالوريليو ان هذه السيدة تشبه تيريز .. جارتنا التى ماتت بالسل فى الاسبوع الماضى ؟!

ورد زوجها قائلا :

ـ نعم .. ان الشبه واضح تماما

وقالت المراة :

ـ وهناك طفلاك يامدام .. والواقع اننى لا افهم كيف يغامر اخى ويتزوج سيدة لها طفلان .. وعدا هذا فان صحتك لا تبدو فى احسن حال .. اليس كذلك يالوريليو ؟

ـ نعم .. نعم .. ان صحتها لكيمث على مايرام

ولما راى كوبيو اثر هذه الكلمات اللاذعة على جرفيز ، صاح قائلا فى تحد واحتجاج :

ـ ان حديثكما هذا لا يقدم او يؤخر فى الموضوع . لسوف يتم الزواج يوم السبت مساء فى التاسع والعشرين من شهر يوليو .. هذا هو قرارى النهائى ..

فقالت اخته بلهجة اقل جفاء :

ـ حسنا .. حسنا .. لسوف نحضر حفل الزواج ، وسيكون لوريليو شاهدا على عقد الزواج . طابت ليلتكما

وقالت جرفيز بصوت باك حين وصلت الى الشارع مع كوبيو :

ـ ان اختك وزوجها ساخطان على زواجنا اشد السخط

فقال كوبيو فى حدة :

ـ ان هذا لا يهمنا فى شيء .. انى لست قاصرا ، ولست معتمدا فى معاشى على احدهما ..

واصر كوبيو على ان يتم الزواج باحتفال فاخر فى الكنيسة ، تعقبه حفلة عشاء تضم جميع الاصدقاء والاقارب . وعبثا حاولت جرفيز ان تثنيه عن هذا الاصرار . واخيرا تم له ما أراد .. وخرج من حفلة الزواج مدينا بمائتى فرنك

***

ومضت اربعة اعوام من العمل الشاق المتصل ، واصبح لكوبيو

وجرفيز سمعة طيبة بين الجيران . ذلك انهما كانا قليلى الاختلاط ، وكانا يقضيان أيام الآحاد والعطلات الرسمية فى الرحلات الخلوية،

وكانت جرفيز تعمل فى اليوم اثنتى عشرة ساعة بمحل مدام فوكوفير للغسيل والكى . ومع هذا كانت تدير حياتها المنزلية على احسن وضع ، وتدير امور الاسرة بحيث يجد أفرادها الطعام معدا فى الصباح والمساء . وكان كوبيو يعمل بدوره دون ان يلقى بأجره فى كئوس الخمر ، وانما كان ليسلم لزوجته أجر عمله كل اسبوعين ، ثم يقضى أمسياته بجوار النافذة يدخن «البايب» قبل أن يذهب الى فراشه. ولما كان المعروف انهما يكتسبان معا نحو تسعة فرنكات فى اليوم ، فقد أدرك الجيران انهما ولاشك يدخران مبلغا لابأس به

ولكن الحقيقة هى انهما لم يدخرا فى هذه السنوات الاربع شيئا كثيرا . ذلك انهما عمدا فى أول الامر الى تسديد ديون حفل الزواج . وفى العام الثالث ، تقدم رجل محسن من هواة الفنون الجميلة فى بلدة بلاسان وطلب منهما ان يتبنى الابن كلود حين آنس منه نبوغا فطريا فى فن الرسم . ورحبت جرفيز بهذا الطلب ، لان كلود كان يكلفها الشيء الكثير من النفقات . واما اتيين ، فكان عبؤه ، بمفرده، خفيفا. وبعد تسديد الدين ، بدءا يفكران جديا فى الانتقال من فندق بونكير للاقامة فى مسكن خاص نظيف :

ولكن المسكن النظيف يحتاج الى اثاثات ومفروشات نظيفة .. وهذه بدورها تحتاج الى مبلغ من المال لا يقل عن مائة وخمسين فرنكا .. وادخار هذا المبلغ يستلزم المزيد من العمل وبذل الجهد.

وفى أقل من عامين استطاعا ان يدخرا هذا المبلغ ، وان يتعاقدا على شراء مايحتاج اليه مسكن نظيف من اثاثات ومفروشات ورياش . ولم يبق إلا استئجار هذا المسكن

وظلا شهرين ينتظران أن تخلو شقة صغيرة فى البيت الكبير بشارع لاكوت دور . ولما خامرهما اليأس من تحقيق هذا الامل، قررا البحث عن مسكن آخر لا يكون بعيدا عن محل مدام فوكوفير الذى تعمل به جرفيز . وساعدهما الحظ فى العثور على بغيتهما .. مسكن بشارع نيف دي لاكوت دور . مكون من غرفتين صغيرتين والمرافق ، وكان يقع فى منزل صغير يواجه — تقريبا — محل مدام

فوكوفير . وكان الطابق الاول من المنزل عبارة عن مربط ومخزن لمركبات وجياد الركوب . والطابق الثانى يتكون من المسكن الصغير، وبقابلة مسكن آخر مماثل فيه شاب حداد وامه العجوز . وكانت النافذة الخلفية للمسكن تطل على الحقول مما اسعد قلب جرفيز.. لانها احست مرة اخرى انها انتقلت الى بلدتها بلاسان

وتم الانتقال الى المسكن الجديد فى ابريل . وكانت جرفيز حاملا فى شهرها الثامن . ولكنها لم تتردد فى بذل ما تستطيع من جهد قائلة وهى تضحك ان هذا الجهد سوف يخفف عنها آلام الوضع.

وعاشا سعيدين فى مسكنهما الجديد الصغير . وكان لاتيين سرير خاص فى احدى الغرفتين . وكان ثمة مكان لسرير آخر للمولود المنتظر ، وقد جاء هذا المولود المنتظر بنتا اطلقا عليها اسم «نانا» . وقال كوبيو وهو يحملها فى رفق بين يديه :

ـ حمدا لله .. كنت اتمنى ان يكون مولودنا الاول بنتا .. وقد استجابت الاقدار لامنيتى ..

وفى الاحتفال بتعميد الطفلة ، تعرفت جرفيز وكوبيو لاول مرة بجيرانهما آل كوجيت .. الحداد الشاب وامه العجوز . لقد دعتهما جرفيز الى المأدبة التى اقامتها بهذه المناسبة ، والتى دعت اليها مدام كوبيو العجوز ، ومدام ليرات ، ومدام لوريليو وزوجها وبعض الاصدقاء . وكانت مدام كوجيت العجوز وابنها وافدين من مقاطعة الشمال بفرنسا وكانت الام تعمل فى تطريز الاقمشة وصناعة المخرمات. سيدة فى نحو الستين من عمرها ، هادئة السمت ، باسمة الوجه . وكان كوجيت شابا فى الخامسة والعشرين ضخم الجسم ، ذهبى الشعر واللحية ، على جانب كبير من البساطة والحياء وكانه عذراء ريفية

وشعرت جرفيز منذ اللحظة الاولى بالميل الى جاريها هذين. وقد دهشت عندما زارتهما لاول مرة من نظافة المسكن وحسن ترتيبه وتنسيقه . ذلك انها لم تشاهد على الارضية اللامعة او على الزجاج بقعة واحدة . ولما اخذتها مدام كوجيت الى غرفة ابنها ، رأتها جرفيز نظيفة ناصعة البياض كأنها غرفة عذراء

وازدادت اواصر الصداقة بين آل كوجيت وآل كوبيو ، وكان

آل كوجيت يعملان طيلة النهار ويكتسبان الرزق بالجهد والعرق ، ويدخران ما يفيض عن حاجاتهما فى البنك . وكان الجيران يكنون لهما كل احترام وتقدير . اما كوجيت الشاب ، فكان يبدو دائما نظيفا خارج نطاق عمله ./. فلم يحدث يوما ان خرج من مسكنه او عاد اليه بقميص ملوث او ممزق . ولم يحدث يوما ان رفع عينيه الزرقاوين الى امراة فى الطريق .. ومن ثم كانت النسوة الغسالات وحاملات المياه الى المنازل يتغامزن عليه فى منعطف الطريق كلما مر امامهن ثم يتبادلن الضحكات قائلات ان الشاب « البكر » فى حاجة الى امراة لعوب تعلمه كيف يخرج من « عذريته » ليكون رجلا كامل الرجولة !.

ولم يكن الشاب يسرف فى شرب الخمر .. وانما كان يشربها بين الحين والآخر ، وقد حدث ذات ليلة ان عاد الى امه مخمورا . ولم تعاتبه او تنحى عليه باللوم ، وانما وضعت امامه صورة أبيه. وسرعان ما افاق من سكره حين راى الصورة وتذكر ماساة أبيه . اى حين تذكر ان اباه قتل زميلا له فى دكان الحدادة بالمطرقة ، وكان مخمورا ، ثم مات فى السجن

ومنذ ذلك الحين كان يشرب دون ان يفقد وعيه

وفى ايام الآحاد كان يصحب امه الى نزهة خلوية ، ثم يعود معها سعيدا أيضا . ولم يكن الشاب ، فى الواقع ، وفى نظر جرفيز ، يزيد على طفل كبير رغم ضخامة جسمه وقوة عضلاته ..

وظلّ كوجيت يشعر بالخجلّ من جرفيز بضعة أسابيع بعد ان تعرف بها . ولكنه لم يلبث ان اخذ يألفها تدريجيا ، فكان ينتظر عودتها ليحدثها عن عمله فى مصنع الحدادة ، او يجلس معها يبادلها الحديث كأخت . وقد حدث ذات مساء ان دخل مسكنها دون ان يطرق الباب ، وفوجىء بها تغسل وجهها وعنقها وهى بملابسها الداخلية . وتراجع بسرعة . وظل اسبوعا لا يستطيع ان يرفع عينيه اليها الا اذا اضطرم وجهه خجلا

وكان كوبيو ، بغروره الباريسى ، ينظر اليه على انه شاب ابله غرير ، وانه ناقص الفحولة . حقا ان الامتناع عن الجرى وراء النساء شىء لا بأس به — اخلاقيا — ولكن الرجل — فى راى كوبيو — يجب

ان يكون رجلا . !! والا فالاجدر به ان يرتدى ثوبا نسائيا . وكثيرا ماكان يحلو لكوبيو ان يداعبه فيتهمه بأنه يغازل نساء الشارع . ويحمر وجه كوجيت خجلا ويقسم انه لم يغازل فى حياته امراة او فتاة .. وتضحك جرفيز عاليا من سذاجة الشاب ، ثم تبادر للدفاع عنه امام زوجها قائلة انه سيكون زوجا مثاليا للفتاة التى ستسعد يوما بالزواج منه . ولكن كوجيت يهز راسه ويؤكد انه لن يتزوج ولن يفكر فى الزواج . وهنا يغمز كوبيو بعينه لزوجته ويقول ضاحكا :

ـ الم اقل لك ؟!

ولكن الصداقة بين الشابين كانت تزداد توثقا . فكانا يخرجان معا فى الصباح الى عملهما ، ويرفعان الكلفة بينهما فى الحديث ، ومما ضاعف من قوة هذه الصداقة ان كوجيت انقذ حياة كوبيو فى اليوم الثانى من شهر ديسمبر . وكان يوما قررت فيه بعض الطوائف ان تعلن احتجاجها على سياسة الحكومة ، فخرجت المظاهرات ، واصطدم الشعب بالجنود ورجال الشرطة . واشترك كوبيو فى احدى هذه المظاهرات ، وكاد ان يتعرض لطعنة سونكى من بندقية احد الجنود لولا ان قفز كوجيت فى تلك اللحظة ولكم الجندى فصرعه ، ثم حمل كوبيو ووثب عبر سياج قريب ، وانطلق الشابان هاربين ، ناجيين ..

وفى مساء ذلك اليوم دعا كوبيو جاريه ، كوجيت وامه لتناول العشاء معه ، وفى نفس الليلة تبادل مع كوجيت قبلات الصداقة الابدية

وعلى هذا النحو مرت ثلاثة اعوام على حياة الاسرتين المتجاورتين مرت فى سلام ومودة وعمل دائم

ولم تقصر جرفيز لحظة فى تربية ابنتها نانا او ابنها اتيين . كانت ترعى الابنة الصغيرة بمعونة مدام كوجيت . وكانت تدفع لابنها اتيين نفقات المدرسة التى التحق بها ، حين بلغ الثامنة من عمره . وكانت قد بلغت من البراعة فى عملها ما جعلها قادرة على ان تكسب فى اليوم اربعة فرنكات . وعلى هذا النحو كان فى مقدورها ان تدخر فى كل شهر نحو عشرين او ثلاثين فرنكا . وقد بلغ رصيدها ، هى وزوجها ، فى البنك بعد ثلاثة اعوام نحو خمسمائة فرنك

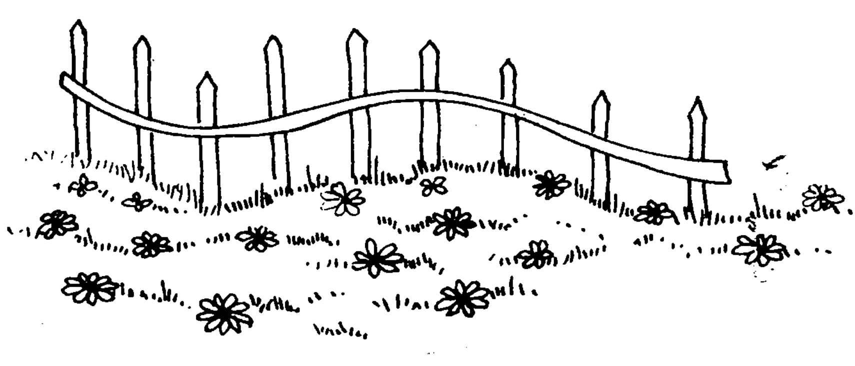
على ان هذا الميل الى الادخار لم يكن يحرمهما من الاستمتاع بأطايب

الحياة أو من الحصول على ما تهفو اليـه النفس فى الحدود المعقولة ، فمثلا كانت جرفيز تتمنى أن تشترى ساعة أنيقة على هيئة تمثال فينوس فوق قاعدة رخامية . وقد استطاعت بعدعام من اقامتها فى المسكن الجديد ان تشترى هذه الساعة ، وان تضعها على خزانة الادراج فى غرفة نومها ، وان تشعر بالسعادة كلما نظرت اليها.

وكانت مع زوجها تخرج فى صباح كل يوم احد فى صحبة كوجيت ووالدته حيث يقضون اليوم فى نزهة خلوية بالريف . وكانوا فى خلال هذه النزهات يتناولون السمك المشوى حينا فى قرية سانت كوين ، او الارانب المحمرة فى قرية ننسنج .. ويشرب الرجلان بعض النبيذ فى غير اسراف ، ويعود الجميع فى نهاية اليوم وهم اشد مايكونون سعادة وهناء

وفى خلال هذه الفترة ، كانت جرفيز لا تكف عن التفكير فى مشروع يؤمن حياة الاسرة بصفة دائمة .. كانت دائما تنظر الى المستقبل وتعرف انه سياتى اليوم الذى تكل فيه عن العمل .. وكذلك كوبيو .. وكانت حالة العمال العجائز المتسولين تفزعها كلما خطر ببالها انه قد ياتى عليها اليوم الذى تتسول فيه طعامها بسبب عجـزها عن العمل ..

وكان المشروع الذى تفكر فيه قد اختمر فى ذهنها ، وقررت ان تفاتح فيه زوجها يوم الاحتفال بمرور العام الثـالث على مولد ابنتهما نانا



الفصل الخامس

بين اليأس والأمل

فى ذلك اليوم .. اى فى يوم الاحتفال بمرور العام الثالث على مولد نانا ، قالت جرفيز لكوبيو بعد عودته من العمل الى البيت مساء :

ـ ان لدى لك مفاجأة سارة ..

ونظر اليها فى تساؤل وهى تضع ادوات الطعام والشراب على المائدة النظيفة . وبعد ان مرت فترة صمت ، قالت فى انفعال :

ـ ان دكان الخردوات فى شارع كوت لادور .. أعنى فى البيت الكبير معروض للايجار . لقد عرفت هذه الحقيقة منذ ساعة فقط عندما ذهبت لشراء بكرة خيط

وكان الدكان صغيرا ونظيفا ، فى نفس البيت الذى تمنت جرفيز ان تسكن فيه . وكانت للدكان غرفتان خلفيتان ملحقتان به .. أى كان الدكان بغرفتيه كل ما يرمز لامال جرفيز لحياة هادئة مستقرة . ولكن الثمن المطلوب كان عاليا .. لقد طالب صاحب العقار بمبلغ خمسمائة فرنك دفعة واحدة

وقال لها كوبيو :

ـ اذن فقد ذهبت وسألت عن المبلغ المطلوب لاستئجـــار الدكان والغرفتين ؟

فاضطرم وجهها وقالت :

ـ ذهبت على سبيل العلم بالشىء فقط . ومجرد الفرجة او السؤال لا يربط أحدا بشىء . ولا شك ان المبلغ المطلوب باهظ جدا : وكذلك من الحماقة ان يغامر الانسان فى الوقت الحاضر لينشىء عملا مستقلا به .. ولكنها عادت الى الحديث ، بعد العشاء ، عن الدكان المعروض للايجار واخذت ترسم على ورقة أمامها كل التفاصيل الدقيقة التى تنوى أن تنفذها لتحويل الدكان الى محل للغسيل والكى .. بل لقد

أخذت تتحدث عن الاماكن التى ستضع فيها الاثاثات والمفروشات فى الغرفتين الخلفيتين ، وكأنها تنوى الانتقال اليهما فى اليوم التالى .

ولما ادرك كوبيو مدى اهتمامها بالامر ، أخذ يشجعها ويؤكد لها ان مبلغ الخمسمائة فرنك ليس بالقدر الكبير لاستئجار دكان وغرفتين ملحقتين به طيلة العام . ثم اختتم حديثه قائلا :

ـ ان المشكلة الوحيدة هى كيفية احتمال السكنى فى بيت واحد مع أختى وزوجها لوريليو !

وهتفت هى فى حدة :

ـ اننى لا اكره احدا .. ومهما بلغت كراهيـــة اختك لى ، فانى سأعرف كيف احتملها واحول كراهيتها الى حب ومودة

ولما حان موعد النوم ، استغرق فيه كوبيو بمجرد ان وضع رأسه على الوسادة ، بينما بقيت جرفيز مسهدة تفكر فى كل صغيرة وكبيرة من المشروع

وفى الصباح ، وقبل انصرافها الى عملها ، تناولت دفتر التوفير من مكانه بقاعدة تمثال الساعة ، وراحت تتصفح أوراقه وهى تقــول لنفسها « فى هذا الدفتر الصغير تتركز كل آمالى » ..

ولما عرضت فكرة المشروع فى ذلك الصباح على مدام كوجيت ، شجعتها بحماس وقالت لها ان عوامل النجاح كلها ميسورة لمثل هذا المشروع ، لانها ، أى جرفيز ، اصبحت خبيرة فى أعمال الغسيـــــل والكى ، ولان زوجها شاب مجتهد مستقيم لا يضيع مكاسبه فى شرب الخمر والجرى وراء بنات الليل

وذهبت جرفيز تســـــتشير أخت زوجها ـ مدام لوريليو ـ حتى لا يقال فيما بعد انها تصرفت بمفردها دون احترام لرأى أحد .

وفوجئت مدام لوريليو بالمشروع وشحب وجهها من فرط الغيرة .. وأبت ان تصدق اذنيها ؟ كيف يمكن هذا ؟ كيف يمكن لهذه العرجاء ان تكون صاحبة محل للغسيل والكى .. ومن يدرى ماذا ينتهى بها الامر ؟ لعلها تنجح وتفتتح محلات أخرى ، وتغدو بعد سنوات قليلة صاحبة مركبة مطهمة بالجياد مثل بنات الاسر الكبيرة ؟

ولكن المرأة تظاهرت بالسرور ، وشجعت جرفيز على تنفيذالمشروع، ثم راحت مع زوجها ، تثبطان همتها بطريقة غير مباشرة ، فقالا ان

الغرفتين الملحقتين بالدكان لا تصلحان للسكنى لفرط مافيهما من رطوبة ، وان احتمال الاصابة بالروماتيزم بعد سكناهما مؤكد . ولكن اذا كانت جرفيز قد عقدت العزم نهائيا فلا معنى لهذه الاعتراضات

وفي ذلك المساء ، اعترفت جرفيز لزوجها ، وهي تضحك ، انها سوف تمرض اذا لم تظفر بهذه الدكان . ولكنها تريد منه أن يذهب ويفحصها ويحاول تخفيض المبلغ المطلوب قبل أن تتعاقد على استئجارها .

وهنا قال لها كوبيو :

ـ سوف أذهب غدا اذا شئت ، تعالي الى في المنزل الذى اعمل به في نحو الساعة السادسة مساء بشارع دى لانيشون ، وسوف اذهب معك لمعاينة الدكان والغرفتين

وفي مساء اليوم التالي كان كوبيو يوشك على الانتهاء من تركيب انابيب المياه الساخنة والباردة على الجانب الخلفي من البيت الجاري بناؤه بشارع دى لانيشون . وكان واقفا بالقرب من السقف على سلاقة صغيرة يضع اللمسات الاخيرة في عمليات التركيب . وكانت الشمس قد مالت نحو الغروب في ذلك اليوم من شهر مايو ، وسكبت اشعتها على المداخن بلون الذهب

وفيما كان يقوم بعمله الدقيق بمعاونة مساعده الفلام زيدور ، اذا به يلمح صديقة زوجته ، البوابة مدام بوش ، فهتف بها :

ـ طاب مساؤك يا مدام بوش .. كيف حالك ؟

ورفعت المراة عينيها الى كوبيو ، وتسمرت في مكانها وهي تراه واقفا بقدم واحدة على السلاقة ، والاخرى على حافة الجدار وقد مال بجسده في وضع يبدو للناظر من أسفل انه شديد الخطر .. ولكن كوبيو كان قد اعتاد على هذه الاوضاع الخطرة

وعاد يقول لمدام بوش في مرح :

ـ الم ترى زوجتى يا مدام بوش

ـ لا .. لماذا تسأل ؟

ـ انها وعدت بالحضور الى في هذا الوقت .. هل كل شيء على ما يرام يامدام بوش ؟

وكانت مدام بوش وزوجها قد تحولا للعمل في حراسة البيت الكبير

الذى تقيم فيه مدام لوريليو وزوجها ، او كما كانت جرفيز تسميه بيت شارع كوت لادور

وردت المراة عليه قائلة :

ـ طاب مساؤك يا مسيو كوبيو .. اننى ذاهبة لشراء فخذة ضان من شارع المولان روج لان اللحم فى هذا الشارع ارخص منه فى الشوارع الاخرى

ولكنها ما كادت تستدير حتى رات جرفيز مقبلة من الجانب الاخر من الطريق ومعها نانا . ورفعت البوابة راسها لتخبر كوبيو بحضور زوجته ولكن جرفيز لحقت بها وامسكت بذراعها وهمست لها :

ـ لا .. دعيه .. اخشى ان تفاجئيه فيختل توازنه .. اننى لم اكن اعرف انه يعمل هكذا معلقا بين الارض والسماء ، يا الهى .. ان ابسط انزلاقة قدم تهوى به الى الشارع

واومات مدام بوش براسها ، بينما استطردت جرفيز تقول :

ـ انها الاقدار التى تجعل بعض الناس يحصلون على خبزهم اليومى باشق الاعمال واخطرها . .

وتوقفت فى جانب الطريق وهى تخفى ابنتها بثوبها خشية ان تصيح الطفلة منادية اباها فيفاجأ وينزلق ولكن كوبيو لم يلبث ان التفت ، وهو فى مكانه الخطر ، ورأى زوجته وابنته ، فابتسم وصاح بهما

ـ اه . اهذه انت يا جرفيز . واقفة تختلسين النظر الى ؟! لاشك انها طلبت منك يا مدام بوش الا تنادى على خوفا من ان اسقط .. حسنا ، لسوف اهبط اليكما فى خلال عشر دقائق

وكانت امراة عجوز شمطاء واقفة فى نافذة البيت المقابل ، تنظر الى كوبيو بوجه مقطب ، وبعينين ترتسم عليهما امارات الترقب !

وبعد لحظات ، قال كوبيو لمساعده زيدور ؟

ـ لقد فرغت من تثبيت راس هذه الانبوبة . وسوف اهبط الان لان زوجتى كما ترى فى انتظارى

وفجاة صاحت نانا حين لمحت والدها لاول مرة :

ـ بابا .. بابا .. انظر

والتفت كوبيو بسرعة نحو ابنته .. وكانت هذه الحركة المفاجئة

كافية لان ينزلق من فوق السلاقة ، واذا هو يهوى على ارتفاع عشرة امتار الى الشارع

وتراجعت المرأة العجوز الشمطاء عن نافذتها ، وأغلقتها ، وكأنما اطمأنت الى أن ما كانت ترقبه قد حدث

وسقط كوبيو على ارضية الشارع بين صيحات زوجته الفزعة ، وصرخات بعض النساء العابرات ، وهتاف الرجال وبكاء الطفلة نانا التى اخذتها مدام بوش بين ذراعيها وهى ترتعد

واسرع بعض المارة الى كوبيو وحملوه الى اقرب صيدلية . وهناك ظل راقدا بلا حراك نحو ساعة . ولكنه كان يتنفس ببطء . بينما ذهب البعض لاحضار ممرضة من المستشفى القريب ، اما جرفيز فقد ركعت بجواره تبكى وتتحسس برفق كل جزء فى جسده ، ولكنها تراجعت قليلا حين طلب منها الصيدلى ان ترفع يديها عن الجريح ، ولما جاءت المحفة وتحدث البعض عن حمله الى المستشفى ، صاحت قائلة انها لن تسمح لاحد بأن يأخذ زوجها منها ، انها على استعداد لان تبيع شعرها نظير علاجه فى البيت ، تحت اشرافها وفى ظل رعايتها

وعلى هذا النحو ، نقل كوبيو الى البيت حيث ظل اسبوعا وهو بين الموت والحياة .. وكان الجيران يتوقعون فى كل لحظة ان يسمعوا نبأ وفاته ، وكان الطبيب المعالج يخرج بعد فحصه كل يوم بوجه ترتسم عليه امارات اليأس . ولكن استقامة الشاب وحيويته وقوة بنيته كان لها الاثر الكبير فى التغلب على الاصابات الداخلية ، ولم يبق أمامه الا ان يتغلب على الكسر الذى حدث فى ساقه

وكانت جرفيز تقوم على خدمته ليلا ونهارا .. ولم يكن يساعدها فى هذه الرعاية الا امه ، مدام كوبيو العجوز ، التى كانت تأتى من بيت ابنتها مدام ليرات لتتولى السهر بضع ساعات ليلا . وكانت اصابة كوبيو قد أدت الى تصفية كل الخلافات بين افراد الاسرة بسبب اضطرارهم الى الاجتماع فى مسكنه للسؤال عنه والاطمئنان عليه . وهكذا تم الصلح بين الاختين مدام ليرات ومدام لوريليو ، وكذلك عاد الوفاق بين الام العجوز مدام كوبيو وبين ابنتها مدام لوريليو التى سرها كل السرور ان ترى جرفيز تبعثر مدخراتها فى علاج زوجها ، وكانت جرفيز ، فى الواقع ، لا تدخر جهدا او مالا فى سبيل علاج زوجها

وعودته الى ما كان عليه من صحة وقوة . ورغم هذا فان مدام لوريليو وزوجها لم يكفا عن السخرية منها . فكانت المرأة تقول بلهجة لا تخلو من شماتة :

ـ لماذا أصررت على علاج زوجك في البيت ؟ والان .. ماذا ستفعلين في تنفيذ مشروعاتك .. ان الدكان لا يزال معروضا للايجار حتى الآن

وكان الزوج ، لوريليو ، يقول متهكما :

ـ نعم .. وان صاحب البيت لا يزال فى انتظارك لاستئجارها

وشعرت جرفيز بالحزن فى أول الامر لانهيار آمالها . ولكنها اخذت تعتاد على هذا الموقف حتى اصبحت تقول ضاحكة كلما تناولت دفتر التوفير وذهبت لتصرف مبلغا جديدا من المال :

ـ انني ذاهبة لاستئجار الدكان

وكانت تعزى نفسها بأن المال المدخر لم يذهب سدى ، وانما ذهب في علاج زوجها الحبيب الذى ما كانت لتتردد فى التضحية بروحها من اجله

ولم يدخر آل كوجيت ـ من جانبهما ـ وسعا فى التخفيف عن جرفيز أثناء مرض زوجها . فكانت مدام كوجيت العجوز تلبى نداءها فى اية لحظة من الليل او النهار ، وكان الشاب كوجيت لايتردد فى اداء اية خدمة تطلبها منه جرفيز ، وفى المساء كان يجلس فى غرفة المريض وينظر فى دهشة واعجاب الى تفاني جرفيز فى خدمة زوجها . وقد قال له ذات يوم وهو فى دور النقاهة :

ـ اتعرف ايها الصديق ان الفضل فى شفائك يرجع الى الله والى زوجتك الملاك الحارس !

ولهذا السبب كان يقول لجرفيز كلما تحدثت معه بشأن زواجه:

ـ ليست النساء كلهن مثلك يامدام جرفيز . ولو كن جميعا مثلك لتزوجت اية واحدة منهن وانا مغمض العينين

ولما تحسنت صحة كوبيو واصبح قادرا على الخروج ، اصرت جرفيز على أن يبقى بلا عمل بضعة أسابيع حتى يسترد كل قواه.

واكتفت هى بالعودة الى عملها ، تاركة زوجها مستجما فى البيت ، او متمشيا فى الطريق او زائرا لاخته مدام لوريليو أو لبعض أصدقائه.

الا انها بدأت تنظر فى شىء من الحسرة والالم الى الدكان المعروض

للايجار كلما مرت به .. وكانت فى أحيان كثيرة تقف أمامه وتعض شفتيها وترى فيه آمالها المنهارة

ورغم ضياع مدخراتها ، فقد اخذ الدكان يحتـل كل تفكيرها .

فكانت فى سكون الليل تفكر فيه وتحسب كل فرنك تحتاج اليه لافتتاحه ، مائتين وخمسين فرنكا ايجارا لمدة عام ، ومائة وخمسين فرنكا لاعداده وشراء لوازمه ، ومائة فرنك لتكون فى يدها حتى يكثر العمل ويزداد عدد عملائها . وهذا يعنى انها فى حاجة الى خمسمائة فرنك على الاقل . واذا كانت ترفض ان تتحدث مع احد فى هذا الشأن ، فانما خوفا من ان تثير شماتة او عطف احد عليها . وفى بعض الاحيان كانت تعض لسانها حين تند عنها كلمة تنم عن أملها المنهار . وكانت ترى انها ستحتاج الى اربع سنوات اخرى لتدخر مثل هذا المبلغ . ولكن هل يتسع العمر لسنوات اربع بعد اربع ! واذا اتسع العمر ، فهل ستجد مثل هذا الدكان الذى يتوافر فيه كل عوامل النجاح ؟

واسوأ من هذا أن كوبيو اعتاد على الراحة والكسل ، فأصبح يؤجل العودة الى العمل اسبوعا بعد اسبوع ، ولم تشأ جرفيز أن تثقل عليه وتبين له أن الجزء القليل الباقى من مدخراتهما لن يكفى لنفقات الاسرة اكثر من شهر آخر

على أن هذا كله لم يكن يقارن بمخاوفها عندما اخذت تراه وهو يعود مساء بين الحين والآخر منتشيا ، يغنى ، ويعترف قائلا انه شرب بضع كئوس من البراندى مع صديقه مبيوتس !

وفى ذات مساء ، وبينما كانت جالسة فى مسكنها بمفردها ، أقبل الشاب كوجيت كعادته ، وجلس يدخن متبغه فى هدوء وهو ينظر اليها نظرة العابد الى معبوده · وأدركت جرفيز من امارات وجهه انه يريد ان يقول لها شيئا على جانب كبير من الاهمية ، ولما طال الصمت بينهما ، جمع شجاعته ، وغص بريقه ، ثم قال فى صوت مضطرب بالانفعال :

ــ مدام جرفيزا .. هل تسمحين لى باقراضك بعض النقود ؟ !
والتفتت اليه بوجه شديد الاحمرار .. لاشك انه رآها اكثر من مرة وهى واقفة امام الدكان ، تحلم ! ولكنها هزت رأسها .. لا .. انها

لا تستطيع أن تستغل عبادة هذا الشاب لها وتأخذ ماله .. ان هذا لا يليق .. اذا كانت الاقدار قد قررت أن تحرمها من تحقيق أغلى أمل فى حياتها ، فلا يجوز لها أن تحاربها بمال هذا الشـــاب الطيب .. ماله الذى جمعه درهما فوق درهم بعرق جبينه ونور عينى والدته .

ثم كيف تقبله وهى لا تدرى متى ترده أو كيف ترده . ! أليس الاحتمال قائما بأن المشروع ـ كأى مشروع آخر ـ قـــد ينتهى بالفشل ؟

لا .. لا .. انها لا تستطيع أن تقبل هذه المكرمة !

ولكن الشاب ظل يلح عليها حتى قالت له فى اضطراب :

ـ ولكن .. ماذا عن زواجك يامسيو كوجيت ؟ انك تدخر هذا المال لتتزوج طبعا ، فكيف أحرمك منه ؟

واحمر وجه الشاب وهو يقول :

ـ اننى لن أتزوج ، أو على الاقل، لا افكر فى الزواج الان ، وحتى لو كنت افكر فيه ، فانى افضل الف مرة ان اقرضك حاجتك من المال . وهنا أطرق الاثنان برأسيهما الى الارض ..

وطلب كوجيت منها أن تذهب وتخبر أمه بأنها قبلت هذا القرض .. قرض مبلغ خمسمائة فرنك . . وكان الواضح على الام العجوز انها غير راضية عن هذه العملية ، ولكنها لم تكن تحب أن ترد لابنها طلبا او تفسد عليه متعته . وكانت فى قرارة نفسها غاضبة على كوبيو لانه رفض أن يسمح لابنها أن يعلمه القـــراءة والكتابة أثنـــاء الشهور الطويلة التى أمضاها فى فترة النقاهة . ذلك ان كوجيت حاول كثيرا أن يغريه بتعلم القراءة والكتابة قائلا له ان الاطلاع على تجارب الغير فى الكتب سوف يحميه كثيرا من مزالق الحياة ، ولكن كوبيو طلب منه ان يتركه وشأنه .

وتم الاتفاق بين جرفيز وال كوجيت على أن تســـدد القرض بأقساط شهرية ، فى مدى عامين ؛ اى بمعدل عشرين فرنكا فى الشهر تقريبا ..

وأخذت جرفيز تنتظر زوجها وهى لاتكاد تمسك نفسها من فرط السرور والابتهاج . وكانت تروح وتجىء فى المسكن وهى تتخيـــل

الدكان بعد أن يتم اعداده .. وتتخيل نفسها رئيسة لبضع عاملات يشتغلن تحت اشرافها ·· والغرفتان الخلفيتان ·· احداهما لهـــا ولزوجها ، والاخرى لنانا واتيين ..

ولما عاد كوبيو فى تلك الليلة منتشيا ببضع كئوس من البراندى ، اخبرته جرفيز بما تم الاتفاق عليه ، وعندئذ ضحك عاليا وضرب فخذه بيده وقال :

ــ عظيم . . عظيم . ان الحداد الشاب يعرب عن عبادته لك عمليا ،حسنا ــ حسنا .. اننا سوف ندفع له ماله كله يوما ما . ولو كنا جماعة من الاوغاد المستغلين ، لخدعناه وغررنا به وأخذنا منه نقوده بلا مقابل .. أليس كذلك يا عزيزى .. ؟

فابتسمت جرفيز فى حزن وقالت :

ــ لا يا عزيزى ·· ليس الامر كما تقـــــول ·· فان الاوغاد المستغلين ما كانوا ليردوا جميلا كهذا بالنصب والاحتيال !

وفى اليوم التالى ، استأجر ال كوبيو الدكان .. وكانت جرفيز من فرط انفعالها ، تجرى من مسكنها الى الدكان ، وبالعكس ، دون أن تعرج .. ومن ثم قال الجيران انها لابد قد أجرت فى ساقها عملية جراحية !



الفصل السادس

لــــذة النجــــاح

أثار المحل الجديد ، محل جرفيز للغسيل والكى ، ضجة كبيرة فى شارع كوت لادور وبين سكان البيت الكبير . ولكن جرفيز ، رغم هذا، كانت تشعر بالقلق حين وجدت ان نفقات اعداد المحل قد ابتلعت المائة فرنك التى كانت تريد الاحتفاظ بها لمدة اسبوعين حتى يكثر العملاء ويدر المحل ارباحه الاولى ، ولكن كان يوم الافتتاح الاول للمحل ، من الايام التى تركت فى نفس جرفيز اثرها العميق .. لقد نجح المحل فى يومه الاول وبلغ صافى ايراده ستة فرنكات . ومن ثم أخــذت جرفيز ، قبل أن تذهب الى فراشها فى تلك الليــلة تقوم بعمليات حسابية على قطعة ورق . ولم تلبث أن ايقظت كوبيو من مسباته وقد توهج وجهها بالفرحة ، وقالت له ان فى مقدورهما ان يربحا مئات وآلاف الفرنكات فى العــــام اذا عرفا كيف يلتزمان الحكمة والاتزان وحسن التصرف .

ولكن مدام لوريليو كانت تقول للجيران بوجه شاحب من فرط الغيرة والحسد :

ـ حسنا .. حسنا .. الشـــاطر من يضحك على الاخر .. لسوف نرى ماذا يمكن لهذه العرجاء أن تفعل ؟ اكبر الظن انهــا ستؤدى بأخى المسكين الى الهاوية .

وكانت مدام لوريليو قد أصبحت ، بعد نجاح جرفيز فى استئجار المحل ، من ألد أعدائها . وقد بلغ من فرط كراهيتهــا ، هى وزوجها ، انهما كانا يسيران فى الاتجاه الاخر من الشارع عنــد خروجهما من البيت حتى لا تقع انظارهما على جرفيز فى محلهــا الانيق النظيف . ولما حدث فى اليوم التالى للافتتاح أن القت احدى العاملات بقايا محلول النشا فى الطريق اثناء خروج مدام لوريليو ،

صاحت هذه امام الجيران، وأثارت ضجة كبيرة باتهامها زوجة أخيها بتدبير الوسائل لاهانتها عن طريق عاملاتها .

ولم تكن ، من فرط الحسد ، والكراهية ، تتورع عن تعريض شرف أخيها للغمز بين الجيران ، فكانت تقول :

ـ نعم .. شيء جميل .. اننا جميعا نعرف من أين جاءت بهذا المال الذى انشأت به المحل . لقد جاءت به من الحداد الشاب كوجيت .. ؟ فهل تراه قد أعطاها هذا المال الكثير بلا مقابل ؟!

ولم تلبث أن اخذت تتهم جرفيز ، علانية ، بتسليم نفسها للحداد الشاب كلما سنحت لها الفرصة .

ولكن مدام كوبيو ـ العجوز ـ كانت حريصة على استرضاء ابنتها مدام لوريليو ، وابنها كوبيو وزوجته ، فكانت تحضر لتناول الطعام بين الحين والاخر معهما وتنصت الى شكاياتهما ، ولا تغضب فى الوقت نفسه ابنتها مدام لوريليو أو ابنتها الاخرى مدام ليرات التى كانت بدورها قد أتخذت موقف العداء من جرفيز وزوجها .

على أن جرفيز ، خلال هذا كله ، كانت تخرج الى باب محلها وتومىء برأسها لهذه الجارة أو تلك ، وتتسلى بالنظر الى موكب الحياة وهو يمر أمام محلها ، وتشعر بالسعادة الغامرة حتى تروح عن نفسها من عناء العمل بهذهِ الوقفة القصيرة بباب المحل .

ورغم كل محاولات مدام لوريليو لتأليب الجيران على جرفيز ، فقد وجد هؤلاء أن جرفيز سيدة طيبة بشوش ، سخية اليد ، منكبة على عملها ، تبدو دائما نظيفة باسمة ، لا تحاول ايذاء أحد أو نهش عرض أحد ، وأكثر من هذا كان الجيران يتفاءلون بها .. فقد جعلهم نجاحها الساحق يدركون أنها انسانة سعيدة الحظ ، يتحول التراب فى يديها الى ذهب ومن ثم كان سكان شارع لاكوت دور كله ، وبعض الشوارع المجاورة يتسابقون فى ارسال ملابسهم الى محلها .. وكانت هى تعمل بجوار عاملاتها الثلاث الى ساعة متأخرة من الليل حتى تفرغ من كل اعمالها فى المواعيد المحددة .

أما من ناحية زوجها ، فكانت جرفيز تعامله أطيب معاملة . فلم يحدث قط أن وجهت اليه كلمة قاسية أو تحدثت من ورائه شاكية . واخيرا عاد كوبيو الى عمله . ولما كان هذا العمل فى الجانب الاخر

من المدينة ، فقد درجت جرفيز على اعطائه فرنكين فى الصباح لركوبه وغدائه وكأس نبيذه وسجائره . ولكن كوبيو كان ينفق المبلغ فى الشراب مع أصدقائه ثم يعود الى البيت ليتناول غداءه ويطلب ثمن سجائره وركوبه . وقد حدث ذات يوم ان شرب مع اصدقائه بأكثر من فرنكين ، فأرسل خادم الحانة الى زوجته لتدفع له المبلغ الزائد . وضحكت جرفيز وهى تدفع هذا المبلغ قائلة لنفسها ان من حق زوجها أن ينعم بالحياة بين الحين والاخر .

واقبل أول موسم للصيف بعد افتتاح المحل .. واشتدت الحرارة بداخله الى حد جعل العرق يتفصد من جبين جرفيز وذراعيها .. وكذلك كان الحال مع عاملاتها الثلاث ، مدام بوتوا ، والآنسة كليمانس ، والصبية البلهاء الحولاء العينين أوجستين .

وفى يوم اشتدت حرارته وقفت العاملة كليمانس بجسمها الكبير وقامتها الطويلة وبشرتها الناصعة وشعرها الذهبى ، وقفت فى المحل تعمل بقميصها الداخلى مما جعل أصحاب المتاجر فى الجانب الاخر من الشارع يختلسون النظرات اليها ، وكذلك المارة . وهنا قالت لها زميلتها مدام بوتوا البالغة من العمر خمسا وأربعين سنة ، والتى كانت واقفة تعمل بكامل ملابسها .. حتى القبعة :

ــ هذا لايليق ياكليمانس . ارتدى ثوبك الخارجى . ان ثلاثة رجال قد وقفوا فى الجانب الاخر يحملقون فيك ..

ولكن كليمانس ، المعجبة بجمالها ، وضعت يدها على نهديها البارزين وقالت ضاحكة :

ــ دعيهم يستمتعون بالنظر الى جمال جسدى ! ان هذه النظرات لن تضر أحدا ..

ولكن جرفيز قالت لها معاتبة :

ــ لا ــ لا ياكليمانس .. قد يظن البعض اننا ندير المحل لاغراض غير شريفة ، يحسن أن ترتدى فستانك ..

ولم يسع كليمانس الا أن تنزل على رغبة صاحبة المحل ، ولكنها لم تلبث أن قالت بعد فترة حين شاعت فى جو المحل رائحة الملابس القذرة التى كانت جرفيز تصنفها وتضع كل كومة منها فى مكان خاص :

– يالهذه الرائحة العفنة المتصاعدة من هذه الملابس !

فردت عليها جرفيز قائلة :

– من المفروض ان تكون ملابس متسخة ، والا لما ارسلها اصحابها للغسيل والكى !

وفيما هى منهمكة فى حصر قطع الملابس وتصنيفها ، اقبل كوبيو وقال فى ضيق وهو يترنح :

– ياللحرارة القاتلة .. انها تكاد تذيب الجسد ..

وكانت تلك اول مرة يقبل فيها كوبيو سكران الى حد عدم القدرة على التوازن . وقد قال معتذرا لجرفيز :

– ان صديقنا بيادى سيرى أصر على أن نشرب نخب عودته الى بلدته .. ويبدو أننا اسرفنا بعض الشىء .. ثم هذه الحرارة القاتلة ، لقد ضاعفت من مفعول الخمر فى دمائنا .

ولم يسع جرفيز الا أن تضحك من هذا الاعتذار الواهى .. وضحكت كليمانس أيضا • وازداد كوبيو انتشاء وهو يسمع ضحكاتهما، فراح يلقى بعض العبارات الفكاهية ، الخادشة للحياء احيانا .. وتزداد كليمانس ضحكا وتقول :

– ما الطف ما يقول المسيو كوبيو .. ان الانسان لايسام الانصات اليه .

وقالت جرفيز وقد عادت الى عملها :

– يحسن أن نمضى وتنام ياكوبيو .. ان هذا خير ما يمكن ان نفعله فى هذا الجو الحار .

ولكن الشاب ظل واقفا يتارجح كبندول الساعة ، وأخيرا تقدم نحو جرفيز وهو يقول بصوت مثقل بالخمر :

– انك زوجة رائعة .. يجب ان اقبلك أولا .

وتعثرت قدمه فى بعض الملابس المتناثرة على الارض وكاد يقع . وقالت له جرفيز دون أن تغضب أو تستاء :

– ليس هذا وقت القبل .. دعنى أفرغ من عملى أولا ..

ولكنه أصر على ان يقبلها ، ليعرب لها عن مدى حبه .. وحاولت جرفيز أن تدفعه عنها ، وراح يتعثر فى الملابس حتى كاد يقع . هتفت مدام بوتوا والانسة كليمانس يطالبانها بالسماح له

ان يقبلها .. وقالت كليمانس ضاحكة :

ـ ليتني اتزوج يوما شابا يصر على تقبيلى هكذا .

وقالت مدام بوتوا :

ـ انك سعيدة الحظ يا مدام جرفيز .. لو كان زوجي يتصرف على هذا النحو حين يسكر ، لغفرت له كل مساوئه .

ووافقت جرفيز أخيرا على ان تقدم شفتيها لزوجها ، ولكنه لم يكتف بتقبيلها ، وانما أمسك نهديها بقوة وتمتم قائلا :

ـ اذا لم تتبعيني بعد خمس دقائق ، فسوف آتى وأحملك بالقوة

فقالت وهى لا تملك نفسها من الضحك :

ـ ارجوك .. دعنى .. دعنى . انك تتصرف بحماقة

ولكنه كان قد أمسكها بعنف ، وراح ينهال عليها بالقبلات النارية ، وكانت القبلة الاخيرة الطويلة ، بين الملابس القذرة ، بمثابة الخطوة الاولى فى طريق الانحدار الطويل .

وترك كوبيو زوجته ، واستدار الى كليمانس ، وحاول أن يمسك بها ليقبلها ، ولكن الفتاة أخذت تراوغه فى تدلل وضحك ، وقالت جرفيز دون أن تشعر بالغيرة او الغضب :

ـ دع الفتاة وشأنها يا كوبيو .. الا ترى أننا جد مشغولات ؟

وقال كوبيو بصوته المخمور :

ـ ان لكليمانس جسدا خلق لتتحسسه أصابع الرجال .. ومن الظلم أن يستمتع به رجل واحد . !

وضحكت كليمانس وقالت ببساطة :

ـ وهذا هو رأيي ايضا يا مسيو كوبيو .

وشجعت هذه الكلمات كوبيو على التمادي فى محاولاته للامساك بها . وخشيت الفتاة أن ينتهى الموقف الى غضب جرفيز ، فصاحت قائلة وهى تصطنع التوسل :

ـ مدام جرفيز .. ارجوك .. ابعديه عنى .

ثم اردفت قائلة حتى تبرىء نفسها تماما من محاولة اغراء كوبيو :

ـ اذا لم يكف عن محاولاته هذه فسوف اغادر المحل .

فقالت جرفيز بلهجة الام التى تعنف طفلا مشاغبا :

ـ يجب أن تتصرف بأدب ياكوبيو .. هلم الى فراشك .

وقالت مدام بوتوا

ـ نعم يامسيو كوبيو .. ان خير ما تفعله الان أن تنام .

فقال كوبيو متلعثما :

ـ حسنا .. حسنا . لسوف أنصرف . ولكن . لماذا لا انعم بلحظات سعيدة .. ان المرأة تحب الغزل والمداعبة ، وأنا اعرف النساء عن خبرة . وما دام الامر لا يتجاوز القبلات ، فأى ضرر فى هذا ؟

ثم استدار الى كليمانس واردف قائلا :

ـ مهلا يا بطتى .. لسوف أظفر بك يوما بعيدا عن أعين الغير .

ولكن جرفيز كانت قد امسكت بذراعه ودفعت به الى غرفة النوم الا انه صاح قائلا لكليمانس قبل أن يختفى :

ـ لا تنسى يا بطتى اننى فى انتظارك هنا ..

وعادت جرفيز الى عملها ثم قالت بعد فترة صمت كأنما تفسر موقفها :

ـ ان الانسان لا يستطيع أن يحطم أعصابه بسبب تصرفات زوج سكير انه يتحدث بلسان الخمر . وبعد أن يفيق سوف ينسى كل شىء . وحسبى أنى أعرف مبلغ حبه لى . وهذا وحده يغفر له كل شىء .

***

واستيقظ كوبيو فى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى مصدع الرأس ، ممرور الفم ، مكتئب السمات ، وكان قد أدرك ان وقت الذهاب الى العمل قد فات ، وأن عليه أن يقضى بقية يومه متسكعا .. ولما ضاقت زوجته بمشاغباته للعاملات فى المحل ، اعطته بضعة فرنكات ، فأخذها وارتدى احسن ملابسه ، وانصرف بعد تناول العشاء ، ولم يلبث أن التقى بأصدقائه فى حانة بيير كولمبس ، ولما عاد فى ساعة متأخرة من الليل ، كان مخمورا أيضا ، وقد قال لزوجته متهكما :

ـ الم يحضر حبيبك اليوم ؟ اننا لم نعد نراه كثيرا فى هذه الايام؟

وكان يقصد بحديثه هذا الشاب كوجيت .

وكان كوجيت يحضر الى المحل بين الحين والاخر ، ويجلس فى ركن منه يدخن غليونه نى صمت ولا يحول نظراته عن جرفيز وهى تقوم بعملها . وكانت هى قد ازدادت امتلاء : واصبح جسدها ملفوفا مشحونا بالجاذبية الجنسية ، كما ازدادت بشرتها نقاء وصفاء .

وكان شعرها الذهبى المتهدل على كتفيها يبين وكانه أسلاك رقيقة من الذهب المتساقطة على بشرة فى نعومة الحرير .

ولما اخذ كوبيو فى الاسابيع الاخيرة يضيق بالصبى اتيين ، ابن جرفيز من لانتيير ، اقترح كوجيت أن يلحقه بالعمل معه فى مصنع الحدادة ، وهكذا اصبح الصبى حلقة جديدة فى سلسلة الاتصال بين كوجيت وجرفيز . وكان الجيران والاصدقاء يتحدثون عن هذه العلاقة بعبارات فكاهية وهم مؤمنون تماما أنها علاقة حب برىءبين شاب خجول وامراة جذابة .

وكانت جرفيز — من جانبها — قد بدات تشعر بالميل الفريزى الى الشاب الهادىء المتزن . وكلما تراكمت عليها المتاعب لهذا السبب او ذاك ، فكرت فى كوجيت ، وشعرت بالراحة والامن . واذا حدث وكانا فى المحل بمفردهما ، أخذا يتبادلان النظرات الطويلة المصحوبة بالابتسامات التى تعرب عن عمق حبهما البرىء المتبادل .

وفى ذات يوم سمعت جرفيز بعض الجيران يتحدثون عن الحالة التى وصلت اليها مدام كوبيو العجوز — امزوجها — وعناضطرارها فى بعض الايام الى التماس الطعام من الغرباء ، واستاءت جرفيز مما سمعت وقررت أن تضع لهذه الاقوال حدا . ومن ثم صعدت الى مسكن لوريليو وزوجته ، وقالت لها بلا مقدمات :

— لعلك ستدهشين من زيارتى لك .. ولكننى لم آت لاراك او ارى زوجك العزيز ، وانما جئت للحديث فى شأن مدام كوبيو اريد أن اعرف هل ستتركها دائما تسأل الناس طعاما كلما شعرت بالجوع !

فقالت مدام لوريليو وهى منهمكة فى عملها :

ياللوقاحة

وصاح لوريليو بوجه مربد :

ـ ماذا تقول هذه المراة

ولمـا أخبرته زوجته بالامر ، قال :

ـ آه .. انها تريد مزيدا من المشكلات . واذا كانت مدام كوبيو تشكو للناس الجوع ، فماذا نفعل ؟ انها تأكل عندنا يوما ، وعند مدام ليرات يوما .. وابنها كوبيو يعطيها بضعة فرنكات بين الحين والآخر .. فماذا تريد أكثر من هذا ؟ !

وهنا قالت جرفيز :

ـ ان لدى اقتراحا جئت لاعرضه عليكما .. ماذا لو ان كل واحد من أبنائها الثلاثة خصص لها خمسة فرنكات كل شـــهر .. انها تستطيع ان تعيش بخمسة عشر فرنكا كل شهر ، وان تنام فى أى مكان .. عندى او عندكما أو عند مدام ليرات ..

وصاح لوريليو قائلا فى فزع :

ـ خمسة فرنكات كل شهر ، ماذا تظنين يا مدام جرفيز . اننـــا قوم فقراء لا نحصل على رزقنا اليوم الا بالعمل الشاق كما ترين . ان الذى يريد ان يأكل يجب ان يعمل .. ومدام كوبيو ليست أكبر سنا من أن تبحث لها عن عمل .. ان مدام كوجيت ، وهى أكبر سنامنها لاتزال تعمل من اجل خبزها اليومى

وحاولت جرفيز بكل وسيلة أن تقنعهما بالاسهام في اعالة العجوز مدام كوبيو ، فلما أصرا على موقفهما ، انفجرت قائلة :

ـ ليكن ما تريدان .. لسوف أعول أمك يامدام لوريليو .. لقد التقطت أمس من الشارع قطة ضالة ، ولا بأس من أن ألتقط اليوم أمك العجوز لاحفظ عليها رمقها . اننى لن أدعها فى حاجة الى شىء . لسوف اقدم لها قهوتها الصباحية ، وكأسها المسائية .. وكل شىء يا الهى .. حمدا الله على ان لها زوجة ابن مثلى

فقالت مدام لوريليو وهى لا تكف عن العمل :

ـ ان هذا ما تريدينه وما تسعين اليه .. تريدين ان تحيلى أمنـــا الخادمة عندك وان تظفرى بالمال اللازم لاعالتها حتى تنفقيهعلىنفسك .

ولكن هذا لن يكون .. اذا كنت تريدين ضمها اليك ، فافعلى ، ولكن تأكدى اننى لن أدفع درهما واحدا لها او لك

وصاحت جرفيز وهى تصفق الباب وراءها منصرفة :

ـ يالك من نمرة متوحشة !

وفى اليوم التالى بدات مدام كوبيو العجوز اقامتها فى مسكن جرفيز التى أعدت لها سريرا مع نانا فى الغرفة الثانية . اما اتيين فقد أعد له مقعد مستطيل ـ اريكة ـ لينام عليها فى ركن بنفس الغرفة . واخذت السيدة العجوز تعرب عن شعورها بالجميل عن طريق الاهتمام بنظافة المسكن .. فكانت تكنسه وتمسحه وترتبه حتى تتفرغ جرفيز لعملها بالمحل . وابتهجت الابنة الاخرى مدام ليرات ، بموقف جرفيز من الام ، فانضمت لها ، وحسنت علاقتها بها ، واخذت تقضى أمسياتها فى المحل تتبادل الاحاديث والفكاهات مع كليمانس . وكان هذا كله سببا لاثارة المزيد من حنق مدام لوريليو وزوجها على افراد الاسرة ، ومن حقدهما على جرفيز

وعلى هذا النحو مرت ثلاثة اعوام اخرى .. مرت بالكثير من المشكلات والمنازعات بين جرفيز وآل لوريليو ، ولكن الجيران كانوا يزدادون حبا لجرفيز واحتراما لها وتقديرا لكفاحها وحرصا على ارضائها . وكانت هى حين تفرغ من عملها ، تقف بباب المحل ، تتبادل الاحاديث والتحيات مع جيرانها من اصحاب المتاجر ، ومع عملائها المارين بها .. وكان يحلو لها ان تزور بعض اصحاب المتاجر والمحلات القريبة منها ، ولا سيما صاحب متجر الساعات المواجه لها .. وكانت تضحك دائما كلما نظرت الى محله الصغير وقد امتلأ بعدد كبير من الساعات التى لا تكف عن التكتكة ودق الساعات فى غير اوقاتها المحددة !



الفصل السابع

لقاء على غير موعد

كانت جرفيز قد اعتادت ان تذهب الى مدام كوجيت يوم السبت مساء لتحمل اليها الملابس النظيفة ، وتأخذ الاخرى التى فى حاجة الى غسيل وكى . وكانت فى كل مرة تتصرف وهى تشعر بالخجل والحرج ، لانها كانت قد توقفت بعد الشهور الاولى عن تسديد اقساط الدين ، والاسوأ من هذا أنها كانت تلجأ الى الشاب كوجيت لتقترض منه حاجتها من المال كلما ارتبكت أحوالها المالية بسبب تصرفات كوبيو واعتياده على انفاق المال بلا حساب مع زملائه واصدقائه في مختلف الحانات . ولهذا السبب عاد الدين الي ماكان عليه

وكانت جرفيز تحاول ان تخصم فى كل شهر ثمن غسيل وكى ملابس مدام كوجيت وابنها من أصل الدين .. وكان المبلغ لا يتجاوز عادة سبعة فرنكات شهريا . ولكنها لا تنسى آخر مرة عندما ذهبت وسلمت ملابس الاسبوع ، وتسلمت الملابس الاخرى ، ثم وقفت مترددة مطرقة الراس ، لتقول فى النهاية :

ــ مدام كوجيت .. اننى آسفة .. اننى فى حاجة هذا الشهر الى اجر الغسيل والكى

وكان المبلغ فى ذلك الشهر عشرة فرنكات ونصف فرنك . وصمتت مدام كوجيت برهة كأنما تفكر فى الامر ثم قالت فى النهاية :

ــ ليكن ماتريدين يا ابنتى . اننى لا استطيع ان أمنع عنك ما أنت فى حاجة اليه . ولكننى أحب ان اقول لك ان هذه ليست الطريقة الصحيحة لتسديد الدين . اقول هذا لصالحك . ويحسن بك ان تكونى اكثر حرصا فى تدبير شئونك المالية . واذكر لك بهذه المناسبة ان اجور العمال انخفضت مرة اخرى ، واصبح اجر كوجيت تسعة

فرنكات بعد ان كان أثنى عشر فرنكا

واطرقت جرفيز برأسها فى خجل ، وأرادت أن تعتذر قائلة انها فى حاجة الى هذه الفرنكات العشرة لتدفعها لصاحبة متجر الفحم ، ولكنها رأت ان هذا الاعتذار لن يجدى . واخيرا تناولت الفرنكات العشرة والنصف فرنك وانصرفت وهى تكاد ترقص طربا ، لانها فى السنوات الاخيرة ، لم يكن يهمها الا ان تحصل على أى مبلغ لتسديد الديون العاجلة ، أما الديون الاخرى التى يمكن ان تنتظر .. فلتنتظر !

وفى ذلك اليوم نفسه التقت جرفيز على غير موعد ، وهى هابطة على الدرجات ، بامرأة طويلة كانت تحمل فى يدها سمكة كبيرة ملفوفة بقطعة ورق . ولم تعرفها الا بعد النظرة الثانية ، فاذا هى فرجينى ، نفس الفتاة التى تضاربت معها فى المغسل منذ أعوام سبعة ، وأغمضت جرفيز عينها وهى تتوقع ان تشعر بضرب فرجينى لها بالسكمة ، ولما طال انتظارها ، فتحت عينيها وراحت تتبادل النظرات برهة فى صمت مع الفتاة التى ابتسمت فى النهاية وقالت برفق :

ـ طاب مساؤك !

ـ طاب مساؤك !

وتوقفتا على منبسط السلم تتبادلان الحديث كأنهما صديقتان قديمتان ، وكانت فرجينى قد بلغت من العمر تسعة وعشرين عاما ، وكانت جرفيز تقاربها سنا .. واخذت الاولى تحدثها عن حياتها خلال تلك الاعوام السبعة ، فقالت انها تزوجت نجارا تطوع فى الجيش ، ثم قرر ان يشتغل شرطيا بعد أن سرح من الجيش ، وانه فى البيت الآن ينتظر أمر التعيين ، وانها خرجت فى تلك الساعة لتشترى له هذه السمكة الكبيرة

ـ انه يحب السمك الى حد الجنون .. وعلينا ان نرضى هؤلاء الازواج الحمقى الكسالى .. تفضلى بزيارتنا .. اننا نقيم فى المسكن المواجه لمسكن مدام كوجيت ..

وبعد أن أخبرتها جرفيز عن زواجها ، قالت لها انها كانت تقيم مع زوجها فى نفس هذا المسكن ، وانها أنجبت فيه طفلتها نانا . وعندئذ ألحت فرجينى عليها لتزورها وتتعرف على زوجها

ورغم أن جرفيز كانت على حذر فى هذه الملاقاة العابرة ، المجددة ،

ورغم خوفها من ان تكون فرجيني تدبر لها مكيدة تنتقم بها مما لقيت على يديها من مهانة واذلال ، فقد قبلت ان تصعد لزيارتها فى مسكنها.

ونهض بواسو ــ زوج فرجينى ــ وحيا جرفيز باحترام عندما قدمته فرجينى اليها ، ولم يلبث أن عاد الى أدواته التى كان يصنع بها صندوق سجائر مطعم بالصدف والابنوس . وكانت تلك هوايته أثناء انتظاره لامر التعيين بالشرطة . وكلما فرغ من صندوق ، باعه لتجار الهدايا والنحت ، وكان ينفق خلال هذه الفترة من المال الذى ادخره أثناء تطوعه فى صفوف الجيش • وكان رجلا طويل القامة ، هادىء السمت ، تنم ملامحه عن الطيبة والبساطة

وجلست المراتان تتبادلان الاحاديث والذكريات . ولكن فرجينى حرصت فى كل أحاديثها على تجنب أية اشارة الى أختها آديل وعشيقها لانتيير . وكانت جرفيز فى أعماق نفسها تفزع من مجرد التفكير فى هذا الاحتمال • احتمال أن تذكر فرجينى اسم لانتير أمامها • ذلك ان كراهيتها له كانت قد بلغت حد الفزع من مجرد التفكير فى سماع اسمه

ولما انتهت الزيارة ، وعدتها فرجيني بأن تردها لها فى المحل ، ثم صحبتها الى باب البيت وودعتها قائلة :

ــ مع السلامة يا مدام كوبيو ..

ــ شكرا يا مدام بواسو

وتوطدت اواصر الصداقة بين المراتين ، واصبحت فرجينى لا تمر امام المحل دون أن تدخل وتجلس فترات طويلة تتبادل الحديث والضحكات مع جرفيز وعاملاتها ، ولا تتردد فى أن تشرب معهن القهوة صباحا أو بعض كئوس النبيذ مساء ، حتى أصبحت موضع الحب والترحيب من الجميع

ولكن جرفيز ظلت اسابيع طوالا وهى تفزع كلما خطر ببالها أن فرجينى تصطنع هذه الصداقة لامر ما ، أو انها ستشير فى احاديثها الى لانتيير وعشيقته آديل . ويبدو ان فرجينى كانت تدرك ــ بغريزتها ــ مخاوف جرفيز ، فقالت لها ذات يوم وهما جالستان تشربان القهوة :

ــ تأكدى يا مدام كوبيو ان صداقتى لك الآن خالصة ولا احمل

لك اية ضغينة وان ما حدث فى المغسل لم يعد له اى تأثير فى نفسى.

وجفلت جرفيز قليلا ، وأيقنت أن ذكر لانتيير لا بد أن يأتى على لسان فرجينى بعد ذلك • وقد حدث ما كانت تخشى ، اذ استطردت فرجينى قائلة بعد برهة صمت :

ــ لقد كان من حقك ان تغضبى وتثورى فى ذلك اليوم بعد الذى حدث . ولو كنت فى موضعك ، لما ترددت فى مطاردة آديل ولانتيير الخائن وقتلهما •• ولكن •• لا عليك •• لقد نالا جزاءهما العادل • ان علاقتهما لم تجلب عليهما الا النحس والتعاسة . لقد رحلا يومذاك ليعيشا فى غرفة قذرة بشارع لاجلاسيير القذر المليء دائما بالوحل. وقد ذهبت لزيارتهما بعد شهر من هربهما ، فوجدتهما فى حالة يرثى لها من النزاع والمشاحنة والخلافات الدائمة . بل أقسم لك ياعزيزتى انهما كانا يتضاربان عندما وصلت الى غرفتهما الحقيرة • حقا ان آديل لا تساوى الحبل الذي تشنق به • انها أختى كما لا أنكر • ولكن هذا لا يمنعنى من القول انها احقر مخلوقة على وجه الارض . ولو انها استطاعت ان تهرب مع زوجى ، لما ترددت . ولهذا فقد جئت به الى هنا بعد أن قاطعتها وطلبت منها ألا ترينى وجهها • ولو أنى أخبرتك بما فعلته معى ، لما فرغت فى يومين . واما لانتيير ، فأنت تعلمين انه اسوأ منها أخلاقا .. انه مثال للجحود ونكران الجميل..انه متعطل بطبيعته ، يحب دائما ان يعيش على حساب غيره .ولكنه فى نفس الوقت لا يتردد عن ضرب المراة التى تعوله وتقيم أوده وتعطيه ثمن الخمر التى يشربها

وظلت جرفيز تنصت الى اخبار لانتيير دون أن تلفظ بكلمة . ولكنها كانت تعجب من ذلك الشعور الذى استبد بها وهى تنصت . انها لم تكن تشعر بالغيرة من آديل بعد ما حدث ، وبعد مرور كل هذه الاعوام . ومع هذا كانت تشعر بابتهاج عجيب وهى تسمع أنباء الخلافات والمشاحنات العنيفة التى كانت تقع بين آديل ولانتيير. وقد اشتد عجبها وهى تجد نفسها على استعداد لان تبقى طيلة الليل منصتة الى حديث فرجينى الهامس فى أذنها . وكانت حريصة على الا توجه أى سؤال حتى لا تبدو مهتمة بالامر • الا أنها كانت تشعر ، مع الاستمرار فى الانصات ، كأن الفجوة العميقة التى كانت بينهما

وبين لانتيير بدأت تمتلىء تدريجيا ، وكأنما حياتها السابقة قداتصلت فجأة بحياتها الحاضرة

ولما صمتت فرجينى برهة ريثما تضع قطعة سكر فى فنجان قهوتها ، قالت جرفيز فى لهجة الانسان الذى يوجه سؤالا عابرا :

ــ الا يزالان يعيشان فى شارع لاجلاسييه ؟

فردت فرجينى على الفور :

ــ لا لا .. ألم اخبرك ؟ لقد افترقا الآن ، نهائيا .. وكان ذلك فى الأسبوع الماضى . لقد جمعت آديل حاجاتها وهربت ، ولم يحاول لانتيير ان يلحق بها

وندت عن جرفيز صيحة خافتة وهى تقول :

ــ اذن فهما لا يقيمان معا الآن

وقالت كليمانس حين سمعت هذه العبارة :

ــ من هما .. ؟

ولكن فرجينى أسرعت تقول :

ــ اننا نتحدث عن اشخاص لا تعرفينهم

وفى الوقت نفسه ادركت ، حين نظرت الى جرفيز ، أن هذا الخبر قد ترك فى نفسها اثرا كبيرا . ومن ثم أخذت ــ باحساس من البهجة الشريرة ــ تردد القصة مرة اخرى ثم تسألها هامسة :

ــ ماذا تفعلين يا عزيزتى لو حاول لانتيير ان يعود اليك !

وقالت جرفيز بحدة رغم الصوت الهامس :

ــ اننى لن اقبل بحال ان ادعه يلمسنى .. اننى الآن زوجة ، وحتى لو لم أكن زوجة ، فقد اقسمت الا يكون بينى وبينه شىء مدى الحياة

ثم أردفت قائلة وهى تهز كتفيها :

ــ اننى اعترف بطبيعة الحال ان اتيين ابنه ، وان هذه الرابطة اقوى من أن أتجاهلها . فاذا كان لانتيير يريد ان يرى ابنه، فسوف ارسله اليه فى أى وقت يشاء ، لان من المستحيل أن يحرم الانسان ابا من رؤية ابنه . اما من ناحيتى يامدام بواسو ، فانى افضل الموت الف مرة على ان يدعه يلمسنى بطرف اصبعه

وكانت ترسم فى الهواء علامةالصليب وهى تقول العبارة الاخيرة ،

وفجأة التفتت الى عاملاتها المتسكعات وقالت :

ــ ما هنا يا سيداتى ؟ هل الملابس ستكوى نفسها بنفسها أو ماذا ؟ هلم الى العمل ..

وبعد أن أسرعت العاملات الى استئناف العمل ، نهضت فرجينى وقالت وهى تهم بالانصراف :

ــ يجب أن أعود الى بواسو الآن والا ظن اننى تجمدت فى الطريق بالهذا الشتاء الرهيب !! ولكن يبدو ان سقوط الثلوج فى الخارج قد توقف.

***

وكانت هذه الاحاديث التى تدار همسا فى ركن المحل ، تترك دائما فى أعماق نفس جرفيز احساسا ملتهبا وكأنما كان لانتيير قد ترك فى هذه الاعماق جزءا من نفسه . حقا انها واثقة بنفسها ، ومصرة على البقاء وفية شريفة حتى آخر لحظة من عمرها ، ولم يكن ايمانها بالوفاء والشرف خاصا بزوجها كوبيو ، وانما لانها أدركت تماما أن هذا الايمان هو نصف السعادة فى الحياة . ولم يكن كوبيو فى الواقع يهمها كثيرا . وانما كان همها الاكبر هو ذلك الشاب كوجيت الحداد . كانت تفكر فيه وهى تشعر بالقلق والحيرة .. ذلك لانه كان يخيل اليها أن ذكرى لانتيير تستبد بعواطفها تدريجيا ، وتجعلها غير وفية لكوجيت . غير وفية لحبه الصامت ، ولصداقتهما العذبة . وكانت لهذا تشعر بالحزن يملأ قلبها ، ذلك ان كوجيت ، فى رأيها ، هو الانسان الوحيد الجدير بكل خلجة سامية نقية من عواطفها وحبها واحترامها . كان لها الرمز لكل احساس نظيف بعيد عن كل الاحساسات الدنيئة التى كانت فرجينى تحاول ان تثيرها فى نفسها بالحديث دائما عن لانتيير

***

ولما اقبل الربيع اخذت جرفيز تلوذ بافكارها الى كوجيت . ذلك لانها كانت تجد نفسها ، كلما جلست بمفردها ، تنزلق الى التفكير فى حبيبها الاول . كانت تتخيله وهو منفصل عن آديل ، ثم وهو يجمع حاجاته فى الحقيبة القديمة ذاتها ليعود اليها . وكانت اذا خرجت تستبد بها المخاوف الحمقاء ، ويخيل اليها انها تسمع فى الطريق وقع

خطوات لانتيير وراءها . وفى هذه الحالة كانت تخشى من النظر وراءها وقد خطر لها انه سيطوقها بذراعيه فى اية لحظة . ومن المؤكد انه يتجسس عليها ، وانه ينوى أن يفاجئها بالظهور ذات يوم وكان مجرد التفكير فى هذا الاحتمال ، يجعل العرق البارد يتفصد من جسمها ، لانه في هذه الحالة لابد ان يقبلها في جانب عنقها كما كان يفعل فى الايام الخوالى .. واذا قبلها فى ذلك الموضع ،فسوف تنهار كل مقاومة لها ..

كانت عندما تستبد بها هذه الخواطر ، تسرع بالذهاب الى مصنع الحدادة الذى يعمل به كوجيت حيث تلوذ بحمايته وتستمتع بالنظر الى ذراعيه القويتين وهما تضربان الحديد وتصنعان منه الاقفال والرتاجات بمهارة عجيبة

وكانت رنات المطرقة على الحديد كفيلة بطرد افكار جرفيز السوداء بعيدا عن ذهنها

ورغم كثرة زيارتها له فى مصنعه ، لا تتبادل معه أكثر من عشر كلمات . كان يكفيها ان تجلس فى ركن دافىء من المصنع ، وهو يعمل ، وترى العرق المتصبب من جسده القوى الشبه العارى،وتلمح على وجهه امارات العزم والقوة والتصميم وهويطوع الحديدلارادته.. وكان اذا طلب منها ان يخرج ليتمشى معها ، رفضت باصرار قائلة ان عمله أهم كثيرا من خروجه معها

وأخذت مخاوفها من لانتيير تتلاشى تدريجيا حتى استردت طبيعتها الهادئة مرة اخرى . وقد كان من الممكن ان تكون على أتم سعادة فى تلك المرحلة من عمرها لولا ان كوبيو كان ينحدر تدريجيا فى الخمر ، وقد رأته ذات مرة فى حانة بيير كولومبس ، فى منتصف النهار ، أى فى الوقت الذى كان ينبغى فيه ان يكون فى عمله ، رأته فى الحانة يشرب الخمر مع زملائه ، ومع هذا أبت ان تجعله يراها ،حتىلايتهمها بالتجسس عليه

وفى نفس هذا اليوم ، فوجئت ، حين عادت الى البيت ، بعدد كبير من الناس مجتمعين امام البيت ، فلما سألت عن السبب ،قالت لها كليمانس :

ـ ان العجوز بيجارد ، المقيم فى المسكن المجاور لمسكنك مباشرة ،

يضرب زوجته الحامل ضربا مبرحا .. لقد عاد منذ قليل وهو مخمور ثم كمن لها وراء الباب حتى عادت من المغسل ، ثم فاجأها بالضرب والركل حتى سقطت مدرجة بالدماء · ألا تسمعين صراخها

وسمع الجميع فى تلك اللحظة صوت البواب بوش وهو يصيح فى العجوز بيجارد مهدداً :

ـ اذا لم تكف عن ضربها فسوف استدعى رجال الشرطة ؟

وكف الزوج المخمور عن ضرب زوجته بعد ان فقدت الرشد . ولما ساءت حالتها ، حملت الى المستشفى حيث ماتت .. ولكنها قالت، قبل ان تموت انها سقطت فوق السلم ومن ثم حدثت لهاتلك الاصابات الظاهرة فى جسدها ..

لقد رفضت الزوجة الوفية ان تدين زوجها حتى لا يحمـــل الى السجن فتحرم بناتها الثلاث من الام والاب فى وقت واحد

وفى تلك الليلة ، سمعت جرفيز زوجها كوبيو وهو يعود مترنحا مخمورا .. ولمـا حاولت ان تساعده على الرقاد ، دفعها بعيدا عنه وهو يدمدم بكلمات غامضة ، ويرسل اليها نظرات نارية .. نظرات الرجل الذى يريد ان يرتكب جريمـــة بلا سبب أو بسبب لا يعرفه أحد غيره

وسقط على فراشه ، ولم يلبث ان استغرق فى النوم،وراح يرسل غطيطه عاليا

انه كالرجل الاخر ·· السكير بيجارد ·· وان جرفيز لتشعر ببرودة الفزع تسرى فى جسدها وهى تفكر فى الرجال جميعا .. فى لانتيير، وفى كوبيو ، وفى بيجارد ·· ولكن هذا الفزع تحول الى اطمئنـــان حين فكرت فى كوجيت



الفصل الثامن

في عيد الميلاد

كانت جرفيز في أوج سعادتها وهي تحتفل بعيد ميلادها الذي وقع في اليوم التاسع عشر من شهر يوليو . وكانت هي وكوبيو قد قررا أن يحتفلا به احتفالا يجعل الجيران والاهل والاصدقاء يتحدثون عنه أياما وأسابيع .. وتم اعداد كل شيء وتوسطت المائدة في المحل أوزة ضخمة يحف بها ألوان من الاطعمة والمشروبات المختلفة ، وكان المدعوون مع العاملات الثلاث اربعة عشر ، بينهم مدام لوريليو وزوجها اللذان قررا أن يتقربا من جرفيز حتى لا تفوتهما هذه الوليمة ، وبينهم ايضا مدام بوش البوابة وزوجها وابنتهما التي كانت في مثل سن نانا ، والجار العجوز المتعطل مسيو برو ، ومدام ليرات ، وفرجيني وزوجها الشرطي بواسو والحداد الشاب كوجيت الذي جاء بمفرده معتذرا عن والدته ..

وبعد الفراغ من الطعام ، بدأ الجميع يشربون في تمهل واستمتاع، بينما تطوع العجوز برو للغناء . وفيما كان يغني ملحمة « البطل عبد القادر » اذا بفرجيني تنحني على أذن جرفيز وتقول :

– اسمعي يا عزيزتي .. تمالكي نفسك .. لقد رأيت اليوم لانتيير .

وكادت الكأس تسقط من يد جرفيز لولا أن تمالكت نفسها ثم همست :

– أين ؟

– في طريقي وأنا آتية الى هنا . لقد رأيته يحوم في الشارع ثم يدخل فرانسواز ..

وتمتمت جرفيز قائلة كأنما تحدث نفسها :

– أرجو أن يكون قد انصرف الى حال سبيله ..

وهزت فرجيني راسها وقالت :

ــ لا ٠٠ لقد رأيته الآن ٠٠ فى الجانب الآخر من الطريق ٠٠ أمام المحل مباشرة ٠

وكان المدعوون يجلسون في المحل ، وقد اتخذوا من طاولة الكى ، مائدة ياكلون عليها ، وكان ثمة نافذة بجوار الباب تطل على الطريق ، وتصادف أن كانت فرجيني وجرفيز جالستين فى مواجهة هذه النافذة، ومن ثم راحت جرفيز تتظاهر بالنظر الى الشارع ، بينما كان العجوز برو ٠ سادرا فى ترديد ملحمته الشعبية المؤثرة ٠

ولمحت جرفيز حبيبها القديم لانتيير واقفا فى ســـكون بالجانب الآخر من الطريق ، أمام النافذة مباشرة ٠ وشعرت بالبرودة تسرى فى جسمها ابتداء من ساقيها ، متسللة الى رأسها ، مارة بقلبها ٠ ولم تستطع أن تريم من مكانها ٠٠ وفيما ظل العجوز برو يردد قائلا :

ترالللا لا ٠٠ ترالللا لا ٠٠ ترالللا لا !

وقال له كوبيو الذى كان قد بدأ الشراب يشعشع فى رأسه :

ــ يكفى هذا الجزء من الملحمة يا مســـيو برو ٠٠ وغدا نسمع الباقى ٠٠

وضحك الجميع ٠٠ ونظر العجوز حوله فى بلاهة ، ثم عاد الى حالته السابقة ، قبل الغناء ، من السكون والذهول ٠

وأصر الجميع على أن يسمعوا مدام ليرات فى أغنيتها المحبوبة ، « يا اله السماء ! » ٠ ولم يسع مدام ليرات الا أن تستجيب لرغبتهم ، فراحت تردد الاغنية العاطفية الرقيقة بصوتها العذب الحانى ٠ وكانت وهى تغنى تمثل المواقف الدرامية بيديها وعينيها ٠٠ فهى حينا تضع يدها اليمنى على صدرها وتتأوه ٠٠ وحينا تضع يدها اليسرى على قلبها وتتنهد ٠٠ ثم ترفع عينها الى السماء فى دعاء وابتهال لـــكى يحفظ الله حبيبها الفاضل فى جبهة القتال ٠٠

ولم تستطع جرفيز ، وهى فى تلك الحالة العنيفة من الاضطراب بسبب رؤيتها للانتيير أن تمنع دموعها من الانحدار على وجنتيها : لقد شعرت كأن الاغنية تعبر عن أحزانها ٠٠ وتصورها كطفل ضائع ٠٠ طفل محروم ٠٠ ليس له من معين غير الله ٠ وانفجرت كليمانس ــ التى لعبت الخمر براسها ــ باكية ثم وضعت رأسها على حافـــة

المائدة وأخذت تكتم شهقاتها فى المفرش . وخيم على الجميع سكون مشحون بالتوتر العاطفى . وأخرجت النسوة منـاديلهن ليمسحن دموعهن . وتجمدت نظراتهن أمامهن على الارض ، وانحدرت دمعتان كبيرتان على وجه المسيو بوش ، البواب ، وأخذ بواسو ـ الشرطى ـ يدخن غليونه بعصبية . ولاح بوضوح أن الخمر بدأت تلعب برءوسهم جميعا ..

ولكن جرفيز وفرجينى رغما عنهما ، لم يسـتطيعا أن تحولا عيونهما عن الجانب الاخر من الشارع . ثم لمحت مدام بوش بدورها لانتيير فأرسلت صيحة اندهاش خافتة ثم بادرت الى كفكفة دموعها بمنديلها . وشرعت النساء الثلاث يتبادلن النظرات فى قلـق ..

يا للهول .. لو أن كوبيو استدار برأسه قليلا لرآه أيضا ، وعندئذ ماذا سيحدث ؟ أن معركة دموية ستقوم بينهما .

ولاحظ كوبيو نظرات النسوة القلقة ، فهتف قائلا :

ـ ماذا حدث ؟ لماذا تنظر احداكن الى الاخرى هكذا ؟

ثم استدار برأسه ورأى لانتيير ، فضرب المائدة بقبضة يده وهتف قائلا :

ـ يا للشيطان .. ! ان هذا اكثر مما يحتمل .. ماذا يريد هذا الكلب القذر من وقوفه أمامنا هكذا . لسوف أعرف كيف أهذبه .

ثم اختطف السكين من فوق المائدة ، ونهض مترنحا ، ولـكن جرفيز امسكت بذراعه وهمست له متوسلة :

ـ كوبيو .. أرجوك .. لا ترتكب عملا طائشا .. ضع هـذه السكين فى مكانها ..

واستطاعت فرجينى أن تأخذ السكين منه ، ولـكنها عجزت عن منعه من الخروج الى الشارع لملاقاة لانتيير . أما الباقون ، الذين كانوا مستغرقين فى انفعالاتهم ، فانهم لم يروا شيئا ، ولم يسمعوا شيئا ، وانما ظلوا يتمايلون ويمسحون دموعهم وهم منصتون بكل مشاعرهم الى غناء مدام ليرات .

واختتمت هذه العبارات الاخيرة من الاغنية بتنهدات عميقة كأنها الانفاس الاخيرة لعاصفة . وبلغ من اضطراب وانفعال مدام بونوا أنها اسقطت الكأس من يدها حين همت برفعها الى شفتيها . وظلت

جرفيز متجمدة في مكانها ، ضاغطة بيدها على فمها حتى لا تند منها صيحة رغما عنها وبينما اخذت اجفانها ترتجف بالخوف خشية ان ترى الرجلين يتقاتلان في وسط الشارع • وكانت مدام بوش وفرجيني ترقبان ما يحدث في اهتمام شديد • أما كوبيو ، فقد تعثر في خطواته عندما خرج الى الهواء الطلق وكاد يسقط بجوار البالوعة أمام المحل ثم كاد يسقط مرة أخـــرى وهو يندفع نحو لانتيير الذى تزحـــزح قليلا وهو واضع يديه في جيوب سراويله • ولم يلبث الاثنان ان دخلا في مباراة عنيفة من الشتائم والسباب • فقال كوبيو للانتيير انه خنزير قذر ، وانه لا يستطيع ان يعيش الا بين القمامة والقذارة •• وارتفعت اصوات الرجلين وهما يلوحـــــان بأذرعهما في غضب • وتخافتت جرفيز في مقعدها وأغمضت عينيها بعد أن عجـزت عن الاستمرار في النظر والانصات • ولما لم تعد تسمع شيئا ، فتحت عينيها وتسمرت في مكانها حين رأتهما يتبادلان الحديث في هدوء •• وابتسام !

وعلقت مدام لوريليو على الكلمات الاخيرة من أغنية مدام ليرات التي كانت تعيد ترديدها :

ـ حقا ان بعض النساء فاجرات بطبعهن !•

وتبادلت جرفيز النظرات مع فرجيني ومدام بوش كانما تقول كل منهن للاخرى ان الرجلين يتصالحان ويتصافيان ـ بل ويتمشيان معا على الطوار جيئة وذهابا بعد ان انفض الناس الذين اجتمعوا حولهما للفرجة عليهما • وفجأة بدا كأن كوبيو قد غضب مرة أخرى ، بينما وقف لانتيير في مكانه كأنه يرفض أن يستجيب له • وكان كوبيو السباك ، هو الذى أخذ يجر لانتيير من ذراعه نحو المحل ويرغمه على الدخول قائلا في صوت مرتفع :

ـ انني مصر على رأيي واعني ما اقول •• يجب أن تدخل وتشرب معنا كأسا •• ان الرجل رجل •• فلماذا لا نكون صديقين ؟

ونظر الجميع الى لانتيير الذى لم يكن معروفا لاحد منهم الا لمدام بوش وفرجيني • ولكن كوجيت ـ الذى كان قد سمع عنه ـ راح ينظر اليه في ريبة وتوجس •

وقال كوبيو ببساطة للجميع :

ـ هذا صديق لى ..

ثم اردف قائلا لزوجته :

ـ هلم .. تحركى .. ألا يوجد شىء من النبيذ :

وحملت جرفيز اليهما ، الواحد بعد الاخر ، فى ذهول وتبلد .. وكانت عندما رأت زوجها يدفع بحبيبها القديم الى المحل ، قـد أمسكت رأسها بيدها كما اعتادت ان تفعل حين تنفجر عاصـفة برقية . ان هذا غير ممكن .. لا شك أن العاصفة سوف تدمر المكان وتسقط الجدران عليهم جميعا . ولكن عندما رأتهما جالسين جنبا الى جنب أمامها ، بدا لها أن كل شىء قد اصبح طبيعيا ، وأنها لم تعد تريد شيئا اكثر من أن تترك وشأنها بلا مخاوف أو قلق أو ألم .. يا للسماء ؟ لماذا تحمل هى أدران الحقد أو الغضب على أحد ما دام غيرها لا يهتمون بشىء . لماذا تظل نافرة أو غاضـبة من لانتيير ما دام زوجها يستقبله على هذا النحو ؟ ان خير ما يمكن ان تفعله ، أن تترك الامور تجرى على هواها ، دون أى احساس بالقلق أو الخوف ..

ونهضت لتحضر زجاجة شراب .

وفى الغرفة الخلفية ، كانت الطفلتان ، نانا وبولين ـ ابنة البواب بوش ، قد استغرقتا فى النوم . وكذلك كان اتيين ، مستغرقا فى النوم بعد ان امتلأت معدته بالطعام .

وتلقت جرفيز صدمة أخرى عندما وقعت عيناها على اتيين . لقـد تذكرت فى تلك اللحظة أن أباه الان بالقرب منه ، يتناول شطيرة ، دون أن يعرب عن رغبته فى رؤية ابنيه !

وخطر لها فى أول الامر ان توقظ الغلام ليرى أباه ، ولكنها رأت أن جو الحفلة لا يحتمل مزيدا من التوتر العصبى ، وقررت أن ترجىء هذا اللقاء بين الابن وابيه الى لحظة اخرى ..

وعادت بزجاجة النبيذ ، وقدمت منه قدحا الى لانتيير الذى بدا عليه انه لا يراها أو يحس بوجودها .

وكان كوبيو يقول مخمورا :

ـ لقد جاء دورى فى الغناء .. لسوف أغنى لكم اغنية « أين أنت يا حبيبى » ؟ وصاح المدعوون جميعـا وقد نسوا أمر لانتيير قائلين .

ـ هلم يا أوجست .. هلم .. لسـوف نشترك معك فى الترديد والموسيقى . وتناولوا ملاعقهم والشـوك استعدادا للرنين بها على الزجاجات والكئوس الفارغة ..

ولم يلبث المارون بالشارع أن اشتركوا فى الغناء ، حتى بدا كأن جميع اصحاب المتاجر القريبة قد سكروا ايضا . وبلغ من فرط الضجيج أن اثنين من رجال الشرطة ظنا ان حادثا وقع امام المحل ، فاسرعا يستطلعان الخبر ، فلما رأيا بواسو بين المدعوين فى المحل أومآ برأسيهما وانصرفا ..

وارتفعت عقائر المنشدين حتى خيل لجرفيز أن سقف المحـل سينهار عليهم جيمعا .. وظل الاحتفال على هذا النحو حتى أوغل الليل ؟ ولم يذكر احد كيف انتهت الحفلة . فلا شك انها انتهت فى ساعة متأخرة من الليل . ولا شك انهم رقصوا متماسـكين بالايدى حول المائدة . واخيرا أخذ الجميع ينصرفون ، الواحـد بعد الاخر ، وهم فى حالة شديدة من السكر . ولم تدر جرفيز ايضا متى انصرف الجميع .. كل ما تذكره أنها استيقظت فى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى مثقلة الرأس لتجد نفسها راقدة على أرضية الغرفة الخلفية بجوار كوبيو ..

وفى مساء يوم الاحد التالى ، أقبل كوبيو فى نحو الساعة العاشرة ومعه لانتيير ، وكانا قد تنـاولا عشـاءهما فى مطعم توماس بحى مونمارتر . ولما رأى كوبيو زوجته تقطب جبينها ، قال مسرعا :

ـ لا داعى للغضب يا جرفيز .. اننا لسنا سـكرانين .. ان لانتيير لا يحب أن يشرب حتى فقدان الوعى ..

ثم اخبرها كيف التقى به مصادفة فى شارع ردشيكورت وكيف أن لانتيير رفض أن ينتقل معه ، بعد العشاء ، الى حانة أخرى ، قائلا ان الرجل المتزوج من سيدة جميلة ، لا ينبغى ان يقضى سهرته متنقلا من حانة الى أخرى . وانصتت جرفيز وهى تبتسم .. لا .. انها ليست غاضبة .. بل أنها كانت ـ منذ حفلة عيد ميلادها ـ تنتظر أن ترى لانتيير يعود لزيارتها فى أية لحظة . ولكنها لم تكن تتوقع أن تراه يأتى فى مثل هذه الساعة التى كانت تستعد فيها للنوم . وبيدين مرتعشتين ، أخذت تعيد عقص شعرها بعد أن كانت

قد تركته يسترسل على كتفيها ••

وقال كوبيو :

ـ اسمعى يا عزيزتى •• ما دمنا قد رفضنا ان نشرب فى الخارج، فلا أقل ان تقدمى لنا شيئا من الشراب هنا ••

وكانت العاملات فى المحل قد انصرفن منذ مدة طويلة • وكانت نانا نائمة فى فراش واحد مع جدتها مدام كوبيو العجوز ، وكانت جرفيز قد شرعت فى اغلاق المحل عندما أقبل الرجلان • ومن ثم تركت الباب مفتوحا وهى تضع الكئوس وبقية زجاجة براندى ••

ولم يقبـــــل لانتيير أن يجلس • بل كان يرفض الحديث معها مباشرة الا أنه قال حين أخذت تصب الخمر فى كأسه :

ـ مقدار قيراط واحد يا مدام من فضلك ••

ونظر كوبيو اليهما فى دهشة ثم قال :

ـ ما هذا ؟ انكما تتحدثان كأنكما غريبان ! لماذا هذا التكلف. أن ما فات قد فات •• ولا ينبغى ان يحمل أحد للاخر فى نفســـه شيئا بعد مرور تسعة أعوام •• بل عشرة ••

ثم ضحك وقال :

ـ اننى رجل بسيط مسالم •• وأنا أعرف اننى اعتمد على رجل شريف •• وعلى زوجة شريفة •• وان ضميرى مستريح ، وقلبى مطمئن وأنا أصبح بينكما ••

وقالت جرفيز وهى تطرق برأسها فى اضطراب :

ـ نعم •• نعم •• هذا صحيح ••

وغمغم لانتيير وقال :

ـ اننى الان انظر اليها كأخت ••

وهتف كوبيو عندئذ فى حماس :

ـ اذن تصافحا •• وليقل الاغبياء الحمقى ما يقولون • ان كل انسان حر فيما يفعل ما دام لا يؤذى احدا •• وانى أفضل هـــذا الوفاق بيننا على مليون فرنك • لان الصديق فى رأيى لا يقدر بمال

وأخذ من فرط حماسه يضرب صدره بيديه حتى اضطر لانتيـــير الى تهدئته ••

وتلامست كئوسهم ، وشربوا فى صمت •• واســـتطاعت جرفيز

فى النهاية أن تنظر الى لانتيير مباشرة ٠٠ أما فى يوم الحفلة ، فكانت تراه من خلال ضباب الخمر ، لقد بدا لها الان أكبر حجما ٠٠ ممتلىء الجسم مكتنز الذراعيين والساقين ، منتفخ الوجه بحيـــــاة كلها الترف والكسل ٠ أما ملامحه فقد ظلت على ما كانت عليه من وسامة وتناسق ، أما شاربه الصغير فقد بدا مهذبا بعناية ، وكان على الجملة يبدو أصغر من سنه ٠٠ أصغر من خمسة وثلاثين عاما !

وكان يرتدى سراويل رمادية ، ومعطفا اسود حسن التفصيل ، وقبعة مستديرة ، من طراز قبعات السادة المترفين ، وكذلك كان يتزين بخاتم ذهبى وسلسلة ساعة ذهبية ٠٠

وبعد أن شرب كأسه ، قال وهو ينصرف :

يجب أن أرحل الان ٠٠ ان على أن اقطع مسافة طويلة حتى أصل الى مسكنى ٠٠

ولكن كوبيو أمسك بذراعه وقال له :

ـ عدنا أن تزورنا كلما مررت بهذا الشارع ٠

ووعد لانتيير أن يفعل ٠ وفى تلك اللحظـــــة عادت جرفيز من الفرفة الخلفية وهى ممسكة بيد الغلام اتيين الذى كان يغالب النوم بجهـد ٠

واخذ الغلام يبتسم ويفرك عينيه ٠ ولـــكنه توقف فى مكانه مضطربا حين رأى لانتيير ، وأخذ ينتقل بنظراته بين أمه وكوبيـــو ٠

وابتسم كوبيو للغلام ٠٠ ثم أومأ برأسه نحو لانتيير الذى كان ينظر الى ابنه فى دهشة ، ثم قال :

ـ هل تعرف هذا المسيو يا اتيين ؟!

وأطرق الغلام بنظراته الى الارض دون أن ينطق بكلمة ، ولكنه أومأ برأسه كأنما يريد أن يقول « نعم »

وقال كوبيو برفق :

ـ اذن لماذا تقف هكذا ؟ الا ترى أن من الواجب أن تسرع اليه وان تقبله !!

ووقف لانتيير ينتظر فى هدوء . ولما جمع اتيين شجاعته واقترب منه ، انحنى عليه ، وأخذ وجهه بين يديه وقبله فى جبينه قبلة حارة ٠ ثم نظر الصبى الى أبيه ولم يلبث ان انفجر باكيا ، واندفع عائدا الى

غرفة النوم دون ان يلوى على شيء

وقطب كوبيو جبينه وقال فى دهشة :

ـ ماذا دهى الغلام ؟ أهكذا يستقبل أباه

وقالت جرفيز مدافعة عنه :

ـ ان المسكين لم يحتمل مفاجأة رؤيته لابيه هكذا

وكانت تتحدث بوجه شاحب ، وجسم مرتعد

وقال كوبيو :

ـ انه هادىء الطباع دائما .. وقد عرفت كيف أحسن تربيته يا عزيزى لانتيير .. اطمئن من هذه الناحية . ولا شك أنه سيعتاد على لقائك تدريجيا . والان .. ألا ترى أن من الواجب ان نبقى أصدقاء ولو من أجل هذا الغلام فقط ؟ نعم .. يجب ان نستعين بكل صفاتنا الانسانية حتى لا نحرم والدا من ابنه

ثم اقترح أن يشربوا كأسا أخرى بهذه المناسبة .. ومرة ثانية تلامست كئوسهم ، وشربوا .. وأصر لانتيير على أن يساعد كوبيو فى اغلاق نوافذ وباب المحل . ولما فرغ ، نفض عن ملابسه الانيقة التراب ثم قال باسما :

ـ أتمنى لكما نوما هادئا .. ويجب أن أسرع الان قبل ان تفوتنى آخر سيارة عامة . وسوف أزوركما فى أقرب وقت



الفصل التاسع

الانحـــــدار

أخذ لانتيير بعد ذلك يتردد على شـــارع لاكوت دور حيث يزور آل كوبيو . وكان فى أول الامر حريصا على دخول المســكن عنــدما يكون كوبيو موجودا به . فكان يسأل عنه قبل أن يدخل ، متظاهرا بأنه جاء من أجله فقط . فاذا لم يكن موجودا ، اكتــفى بالجلوس بجوار نافذة المحل ، مرتديا ملابسه الكاملة ، حليق الوجه ، ممشط الشعر ، مهذبا فى حديثه كأى انسان مثقف . وأخذ آل كوبيو ، شيئا فشيئا يعرفون تفاصيل حياته فى السنوات التى غابها .. عرفوا منه انه كان مديرا لمصنع قبعات ، ولكن احــد الشركاء فى المصــنع ضيع رأس المال على الخمر والنساء ، وانه منذ ذلك الحين لا يقبل أن يعمل بيديه بعد أن كان مديرا .. ولهذا فهو يبحث عن العمل المنــاسب لمؤهلاته . ولكن الجميع كانوا يدركون أن له مورد رزق خفيا ، والا فمن أين له كل هذه الملابس والمظاهر البراقة . وكان حريصــــا على أن يبدو غامضا فى كل شيء .. حتى فى مسكنه .. اذ قال انه يقيم مع صديق فى مسكن بحى بعيد جدا ، ولكنه يبحث عن مسكن قريب من المحل

وبعد ذلك أخذ لانتيير ـ وكان فصل الخريف على الابواب ـ يحمل باقات زهور البنفسج لجرفيز والعاملات ، ويكثر من زياراته لهن حتى أصبحت هذه الزيارات يومية . وكان يعــرب عن رغبته لان يكون موضع الحفاوة والترحيب من جميع سكان الشارع . ولهذا حرص على أن يعامل الجميع برقة وأدب ، وأن ينتهز كل فرصة لمجــاملتهم وتقديم بعض الخدمات لهن . وكانت النتيجة أن العاملات فى المحل أصبحن ، بعد شهر واحد ، يقدسنه وينتظرن زيارته بفارغ الصبر. وكذلك كان موقف مدام بوش وزوجها . ولم يلبث أن اتسع نطــاق

هذا الشعور بين جميع أصحاب وصاحبات المتاجر القريبة . وهكذا تحول سخط الجميع وتقولاتهم عن عودة العلاقة القديمة بين جرفيز ولانتيير ، الى احترام ومودة وتقدير

ولكن كوجيت ـ الحداد الشاب ـ كان فقط الذى اتخذ موقفا سلبيا من لانتيير .. كان يترك المحل وينصرف كلما رآه مقبلا حتى يضطر الى التعرف به أو انشاء علاقة صداقة معه

وفى الوقت الذى كان فيه لانتيير يوثق علاقات المودة مع الجميع، كانت جرفيز فى الاسابيع القليلة الاولى ، تعيش فى حالة من الحزن والاسى . كانت لا تزال تشعر فى أعماق نفسها بذلك الاحساس المثير الذى خامرها يوم حدثتها فرجينى عن لانتيير أول مرة . وكان أشد ما تخشاه أن تعجز عن مقاومته اذا جاء ذات ليلة ورآها بمفردها واراد أن يقبلها .. ومن ثم كانت تفكر فيه كثيرا ، وتشعر به أكثر مما تريد . ولكن مخاوفها لم تلبث على أية حال أن هدأت تدريجيا عندما رأته يتصرف كرجل مهذب ، اذ لم يحدث قط أن حاول أن يختلس اليها النظرات ، أو أن يلمس يديها من وراء ظهور الغير . وعدا هذا فقد جعلتها فرجينى ـ التى لاح انها قرأت أفكارها ـ تشعر بالخجل من احساساتها هذه . ما الذى يخيفها من رجل مهذب كهذا ؟ ماذا يمكن أن يفعله لانتيير بعد أن أصبح على هذا النحو من الادب وحسن السلوك ؟ وقد استطاعت فرجينى ذات يوم ان تجمع بينهما على انفراد ، وأن تحول مجرى الحديث الى الحب . فقال لانتيير ، بصوت حزين ، ان قلبه قد مات ، وانه لم يعد يريد من الحياة الا أن يوفر السعادة لابنه المسكين . ولم يحاول قط أن يشير فى احاديثه الى ابنه الاكبر كلود الذى كان يعيش فى الجنوب .. فى بلاسان . وكان يقبل اتيين كل مساء فى جبينه ولا يدرى ماذا يقول له اذا مكث معه فى الغرفة بعض الوقت ليلا ، ثم ينساه تماما عندما يشعر فى تبادل الثناء والمديح مع كلميانس . وهكذا لم تلبث جرفيز ان اطمأنت اليه والى حسن سلوكه . وكان وجوده أمامها دائما قد أحسن اليها من ناحية أخرى ، اذ انقذها من ذلك الشوق الخفي الذى كان يشدها الى ذكريات الماضى .. فى بلاسان .. وفى فندق بونكير .. انها لم تعد تتعذب ، خفية بهذه الاشواق ، ولم تعد

تحلم بتلك الذكريات . بل وأكثر من هــذا أخــذت تحس بالنفــور والاشمئزاز من تلك العلاقة السابقة التى ربطتها بلانتيير يوما ما .. آه .. لقد انتهى هــذا كله الان .. انتهى الى الابد .. واذا حاول يوما أن يعيد هذه العلاقة معها ، فسوف تصفعه وتخبر زوجها اذا لزم الامر . أما عواطفها نحو كوجيت ، فهى أجمل وأســمى شىء فى حياتها

وفى ذات صباح ، قالت كليمانس انها رأت لانتيير فى الليلةالسابقة يدخل مع امراة شقراء على جانب كبير من الجمال الى مسكنها فى شارع نوتردام دى لوريت ، وانها حين سألت البواب عنها ، عرفت أنها من غوانى حى مونمارتر

ولما أقبل لانتيير فى المساء ، أخذت كليمانس تعاتبه وتداعبه وتذكر له أنها شاهدته فى الليلة السابقة مع غانية معـــــروفة . ولم يغضب لانتيير من مداعبة كليمانس ، وانما بدا عليه انه ابتهج لرؤيتها له مع تلك الغانية . وقد كافأها على هذه المداعبة بأن قرصها بضع مرات فى ظهرها دون أن يراه أحد .. وضحكت هى لمداعبته وقالت انهـــا كانت تتمنى لو تعطرت برائحة المسك التى كانت الغانية تتعطر به

ولما أقبل الربيع أصبح لانتيير كفــرد من أفــراد الاسرة ، واكثر الحديث عن رغبته فى الانتقال الى مسكن بالشارع ليكون قريبا من أصدقائه وأحبابه . وقال انه فى حاجة الى غرفة مفروشة بمنزل محترم . وبذلت مدام بوش ، وجرفيز ، جهودهما فى البحث له عن بغيته . وكلما عثرا له على غرفة ، رفضها قائلا انه يريد غرفة لطيفة تطل على فناء واسع ، مثل الغرفتين الخلفيتين للمحل . وكان دائما يقول لكوبيو :

ــ حقا انك لرجل ســعيد الحظ اذ عثرت على المســكن المريح المستقل

وفى ذات ليلة ، بعد أن فرغ من العشاء مع كوبيو وجرفيز ، تحول الحديث الى أمنيته فى العثور على مسكن مريح مثــل مسكنهما . وهنا صاح كوبيو الذى كانت الخمر قد بدأت تشعشع فى رأسه :

ــ ولماذا لا تقيم معنا أيهــا الصديق ؟ اننــا نستطيع أن ندبر لك مكانا بيننا اذا قبلت !

ثم أردف قائلا ان الغرفة الصغيرة التى تستعمل مخزنا للملابس المتسخة ، والتى ينام اتيين فى ركن منها ، يمكن أن تنظف وأن تخصص لاقامة لانتيير ، على أن يوضع سرير اتيين فى ركن بالمحل وراء ستارة صغيرة

وهتف لانتيير قائلا :

ـ لا لا .. لا أستطيع أن اقبل . ان هذا الكرم اكثر مما يمكن ان اقبله . وحتى اذا قبلت ، فكيف يمكن أن أدخل الغرفة الاخيرة دون أن أمر على الغرفتين الأوليين ؟ .. ان هذا وحده لا يليق

وضحك كوبيو عاليا وقال :

ـ آه ايها الخبيث ! انك تفكر دائما فى هذا الجانب ! ولكن .. الا ترى ان فى الامكان التغلب على هذه المشكلة ؟ الا ترى انه من الممكن تحويل نافذة غرفة المخزن الى باب فتصبح مستقلة ، لها مدخلها الخاص من الفناء ؟!

وصمت لانتيير برهة ، ثم قال :

ـ آه .. اذا كان الامر كما تقول ، فمن الممكن أن اقبل .. ولكن .. لا لا .. أخشى ان أثقل عليك وعلى مدام جرفيز ..

وكان حريصا على تجنب النظر الى جرفيز التى فوجئت باقتراح زوجها ، ولكنها ما كادت تتذكر أن الغرفة بعد تأثيثها يمكن أن تؤجر بعشرين فرنكا فى الشهر ، حتى أومأت برأسها وقالت :

ـ لا لا .. انك لا تثقل علينا فى شىء .. وسوف نحاول أن ..

وبادرت مدام كوبيو العجوز التى طالما أتحفها لانتيير بأقراص الحلوى . فقالت مؤيدة :

ـ ان وجودك بيننا سوف يسعدنا جميعا

ولما أراد لانتيير أن يتمادى فى الاعتذار ، صاح كوبيو مناديا على اتيين ، فأقبل الصبى وهو يفرك عينيه مغالبا النوم ، وهنا قال له كوبيو مشيرا الى لانتيير :

ـ قل له يجب ان تقيم معنا يا أبى .. قل له هذا ..

وطرف الصبى بعينيه ثم نظر الى أبيه وقال :

ـ يجب أن تقيم معنا يا أبى

وقال لانتيير وهو يتظاهر بمسح دموعه :

ـ انني اقبل .. اقبل هذا الكرم البالغ يا اصدقائى .. واقبل من اجل الصبى ايضا

وفى اليوم التالى بدا العمل ـ بعد استئذان صاحب البيت ـ فى تحويل نافذة غرفة المخزن الى باب يؤدى الى الفناء ، بجوار الباب المؤدى الى الغرفتين الاخريين

ورغم أن تأثيث الغرفة قد زاد من ديون جرفيز مائة فرنك الا انها كانت تعزى نفسها بالامل فى ان مبلغ العشرين فرنكا الذى سيدفعه لانتيير ايجارا للغرفة كل شهر ، كفيل بتسديد هذا الدين الجديد ، وجانب من الدين القديم

وبدأ لانتيير اقامته فى الغرفة فى أوائل شهر يونيه . وما كادت جرفيز ترى الحقيبة الكبيرة القديمة فيها ، حتى شحب وجهها واحست بكل ذكريات الماضى تطوف بها وتملأ عليها حياتها

وكان لانتيير يتناول وجبات الطعام فى مطعم فرانسواز ، فى منعطف شارع دى مواسنيير . ولكنه كان يتناول عشاءه ثلاث أو اربع مرات فى الاسبوع مع كوبيو وزوجته . واخيرا عرض على الزوجين ان يتناول معهما وجبات الطعام مقابل خمسة عشر فرنكا كل أسبوع . ومنذ ذلك الحين وهو لا يكاد يفارق المكان .. كان يرى وهو يدخل ويخرج ويجلس فى المحل كواحد من افراد الاسرة . واكثر من هذا بدا يرفع صوته ويصدر أوامره ويتعامل مع الزبائن ، ولما ضاق بشرب الخمر فى الخارج ، طلب من جرفيز ان تأتى اليه بحاجته من الشراب فى المحل أو فى غرفته . وشيئا فشيئا اخذ لانتيير يفرض نفسه على الاسرة ، وكان حريصا على أن يقوم بدور حمامة السلام بين الجميع . فاذا قام نزاع بين جرفيز وحماتها مدام كوبيو ، تدخل بينهما وراح يلقى عليهما المواعظ فى كيفية التسامح ووجوب العمل على تصفية ما يقوم بينهما من مشاحنات أولا بأول . واذا اختلفت جرفيز مع زوجها فى شىء ما ، ثم تمادى الخلاف الى تبادل الشتائم والضربات ، اسرع ووفق بينهما وأعاد السلام فى حياتهما . واستطاع أن يكتسب محبة الطفلة نانا عندما حرص على أن يقف بجانبها ضد ابنه اتيين كلما اختلف الطفلان فى شىء ما

ومر عام على هذا النحو .. وكان الجيران يعتقدون أن للانتيير دخلا

خاصا ينفق منه على نفسه وعلى آل كوبيو ، ذلك لأنه لم يكن هناك تفسير آخر لمستوى المعيشة الذى تحيا عليه الاسرة . حقا لقد كانت جرفيز تكسب من المحل ، الا أنها كانت مضطرة للانفـــاق على رجلين متعطلين ، فضلا عن حماتها وابنها وابنتها .. كما أن العمل فى المحل لم يكن كالعهد به .. فقد أخذ العملاء يتناقصون تدريجيا على نحو ما ، كما أخذت العـــاملات يهملن فى عملهن ويعبثن مع لانتيير كلمـــا سنحت لهن الفرصة . وأسوأ من هذا ان لانتيير كان قد توقف عن دفع الايجار بعد الاشهر القليلة الاولى من اقامته ، ثم توقف عن دفع نفقات طعامه وشرابه وكان يزعم لجرفيز أنه سيدفع لها جميع المبالغ المتأخرة عليه عندما يوفق الى المنصب الكبير المناسب له .

ويئست جرفيز فى النهاية من مطالبته ، وأصبحت تعتمد فى معظم معاشها على الشراء بالنسيئة ، وهكذا لم تلبث أن أصبحت مدينـــة للبقال والجزار والخباز والفحام واللبان ، كما تراكم عليهـــا ايجـــار المحل والمسكن ، الا أنها كانت تبدو مخمورة بهذه الديون المتراكمة ، ولم يعد يهمها الا ان تحصل على أطيب ألوان الطعام والشراب وأجمل الملابس ما دامت لا تدفع الثمن نقدا .. ومع هذا كانت نواياها حسنة .. كانت تأمل فى اليوم الذى تكسب فيه مائة فرنك يوميا .. ولكنها لم تكن تعرف كيف سيتحقق هذا الامل . وكان طبيعيـــا أن تزداد أحوالها المالية اضطرابا .. وكلما ازدادت ، أخذت تتحدث عن آمالها فى توسيع نطاق العمل بالمحل ، وفى تجديده واكتساب العملاء القدامى مع المزيد من العملاء الجدد ، ومع هذا فقد تركت كليمانس العمـــل معها فى منتصف النصيف ، وكان عليها أن تنتظر شهورا حتى تظفـــر بأجرها المتأخر . وفى خلال هذه الازمة الطاحنة ، كان لانتيير وكوبيو ينعمان بأسعد أوقاتهما .. يشربان حتى يفقدا الوعى ، ويأكلان حتى تمتلىء بطونهما ، وحتى يصبح الواحد منهما عاجزا عن النهوض من مقعده لفرط ما أكل وشرب

وكان أهم موضوع للاحاديث الدائرة بين الجيران ، هو التساؤل عما اذا كانت العلاقة الغـــرامية بين لانتيير وجرفيز قـــد عادت الى ما كانت عليه أم لا . واختلفت آراء الجيران فى هذا الشأن .. فآل لوريليو ، الاعداء الالداء ، يؤكدون أن « العرجاء » بذلت كل جهـــد

ممكن لتعود الى احضان عشيقها السابق مع الاحتفاظ بزوجها ، لكن لانتيير يأبى أن يتجاوب معها بعد أن نفدت جاذبيتها ، وأنه يفضل الجرى وراء الغانيات الاكثر جمالا وشبابا . اما آل بوش ، فكان رأيهم ان جرفيز تلقى بنفسها بين احضان عشيقها بمجرد ان يبدأ زوجها فى الغطيط ! ولكن هذا كله كان قليل الاهمية بجانب موقف الجيران باعتبار ان حياة الثلاثة معا ، مسالة طبيعية لا تحتاج الى استنكار او تدخل .. ماذا لو أن جرفيز تعاشر رجلين ، احدهما الزوج ، والاخر العشيق ، ما دام الجميع يعيشون فى وئام ووفاق ؟! بل اليس هذا — فى رايهم — افضل وارقى من زوجين يعيشان فى نزاع وخلاف وضجيج كل ساعة فى اليوم ؟ ثم .. اليس فى كل اسرة من المخازى والمساوىء ما ينضح له الجبين خجلا لو ان احدا يكتشف اسرارها ، فلماذا اذن يلام آل كوبيو والعشيق على شىء يكاد يحدث مثله فى كل مكان . يكفى أن المراة ورجليها يأكلون معا ، ويشربون معا ، وينامون معا ، دون أن يزعجوا الجيران بالصياح والمشاجرات والضجيج . واكثر من هذا فان لانتيير يجامل كل انسان ، ويداعب كل طفل ، ويؤدى اية خدمة فى مقدوره ان يؤديها لكل من يطلبها منه.

وحتى لو اراد الفاكهى ان ينفى وجود كل علاقة آثمة بين جرفيز ولانتيير أمام الخضرى ، فان الخضرى يهز راسه اسفا ، لان عدم وجود هذه العلاقة يحرم الجيران من موضوع شيق يتحدثون فيه !

وفى خلال هذا كله كانت جرفيز تعيش فى سلام وهدوء مع نفسها. بل لقد بلغ بها الحال حدا جعل الناس يتهمونها بأنها امراة بلا قلب. ففى محيط الاسرة ، كان الجميع لا يفهمون سر نفورها الجنسى من لانتيير .. فأخت زوجها مدام ليرات ، تأتى كل مساء وتقول لها ان لانتيير شاب جذاب تتمنى كل امرأة أن تعيش بين ذراعيه . ومدام بوش تؤكد لها انها تتمنى لو كانت أصغر عشر سنوات لتتخذ من لانتيير عشيقا لها . ولاح لجرفيز ان هناك مؤامرة خفية تقودها فرجينى ، لدفعها الى احضان لانتيير مرة أخرى . ولكن جرفيز لا تفهم سر هذا الاهتمام كله بلانتيير .. انه فى نظرها قد فقد كل جاذبية تغريها بالعودة الى ذراعيه . حقا لقد تغير كثيرا فى الظاهر.. فهو يبدو دائما انيقا ، مهذبا ، مجاملا .. ولكنها كانت الوحيدة التى

تنفذ الى اعماق نفسه عن طريق عينيه ، وكان ما تراه فى هذه الاعماق يرسل الرعدة فى جسدها . واذا كان لانتيير جذابا الى هذا الحد ، فلماذا لا يعشقنه هن ؟ هكذا قالت لمدام ليرات ، ولفرجينى . ولكن الاثنتين قالتا لها ـ لاثارة غيرتها ـ ان لانتيير أصبح على علاقة حب دائمة مع كليمانس ، العاملة السابقة فى محلها . واذا ارادت ان تتاكد بنفسها ، فما عليها الا ان تزور كليمانس فى غرفتها فى اية ساعة من ساعات النهار . وهنا كانت جرفيز تقول بصوت حاولت أن تجعله طبيعيا :

ـ وماذا يهمنى فى هذا كله

ثم تنظر بامعان الى عينى فرجينى الشبيهتين بعينى قطة ، وتضطرب فرجينى ، وتقول وهى تصطنع عدم المبالاة :

ـ طبعا .. طبعا .. ان هذا لا يهمك فى شىء ؛ ولكننا نقول لك هذا حتى تنصحيه بترك هذه الفتاة وشأنها ، والا اوقع بها فى مشكلات لا نهاية لها

ولكن اسوأ شىء فى هذا كله ان لانتيير بدأ يستمد الجرأة من هذا الموقف ، فراح يغير سلوكه نحو جرفيز . فكان اذا صافحها ، استبقى يدها فى يده برهة ، وكان ينظر اليها نظرات طويلة مشحونة بالمعنى الواضح بما يريده منها . واذا مر بجانبها ، ضغط بركبتيه على ظهرها وأرسل انفاسه على عنقها كانما يريد ان ينومها ويسلبها كل ارادة للمقاومة . واخيرا انفرد بها ذات مساء فى المحل ، فراح يدفعها الى ركن منه ، بعيد عن النافذة ، محاولا ان يغتصب منها قبلة . وفى تلك اللحظة دخل الشاب كوجيت ، وتمكنت جرفيز من الخلاص من لانتيير ، وتبادلت معه كلمات عادية كأن شيئا ما لم يحدث . ولكن وجه كوجيت كان شاحبا ، وقد حسب أنه دخل فى وقت غير مناسب وافسد على العشيقين متعتهما

الفصل العاشر

بين القلب والجسد

وفى اليوم التالى كانت جرفيز تشعر بقلق مرير وهى تتحرك داخل المحل .. وقد اشتد قلقها الى حد أنها غدت عاجزة عن كى منديل صغير . كانت تهفو الى مقابلة كوجيت بأى ثمن لتشرح له أن لانتيير هو الذى أراد أن يقبلها رغما عنها . ولكن كيف تذهب لمقابلته فى المصنع ؟ لقد كانت تذهب اليه متظاهرة بالرغبة فى رؤية ابنها العامل معه . ولكن اتيين كان قد رحل الى مدينة ليل ليتدرب على ادارة الآلات الحديثة . فكيف تذهب اليه ، وماذا تقول له ، وما هى الافكار التى ستراود زملاءه فى المصنع حينما يرونها ذاهبة لزيارته؟

وفى نفس اليوم بعد الظهر ، لم تستطع ان تكبح جماح رغبتها ، فحملت سلة وذهبت اليه متظاهرة بشراء كمية من البطاطس من محل خاص بشارع بورث ــ بلانش . ولما وصلت الى شارع ماركاديت الذى يقع فيه المصنع ، سارت متمهلة آملة ان يلمحها كوجيت فيسرع للقائها

وحالفها حسن الحظ .. أو لعل كوجيت كان ــ بدوره ــ ينتظر رؤيتها فى اية لحظة ، فما كادت تقترب من باب المصنع حتى رآته مسرعا نحوها ، متهلل الوجه ، يقول لها كأنما يراها مصادفة :

ــ آه .. هل أنت فى طريقك الى البيت بعد جولة للتريض ؟!

قال هذه الكلمات لانه لم يجد كلمات أخرى يقولها . وسارت جرفيز معه فى اتجاه مونمارتر ، جنبا الى جنب ، دون أن يتبادلا حديثا أو يتماسكا بالايدى . كانا يريدان فقط أن يبتعدا عن المصنع بقدر الامكان حتى لا يظن أحد انهما التقيا على موعد ، وبعد مسافة مائتى ياردة تقريبا انعطفا معا ، وبحركة تلقائية ، نحو اليسار ، وكأنهما يعرفان البقعة التى يجب أن يذهبا اليها فى ذلك اليوم . وكانت تلك

البقعة منطقة زراعية خضراء تقع بين مصنع للخشب ، واخر للزرايـر ، وهناك كانت ثمة شجرة صغيرة بجوار جدول ماء ، وتحت الشجرة كان ثمة جدى صغير يرعى بعض العشب

وتمتمت جرفيز فى ابتهاج :

ـ عجبا .. اننا هنا كأننا فى الريف :

وجلست جرفيز بجواره ، والسلة عند قدميها ، وامامها من بعيد، ترتفع أبراج الكنائس وأسطح المنازل فى حى مونمارتر • ومن فوقها ، حين تستريح بظهرها الى الشجرة ، كانت ترى السماء صافيـة ، تسبح فيها ، فى الافق الشمالى ، بعض السحب الخفيفة المتقطعة

وقالت جرفيز وهى تشعر بالارتباك للصمت المخيم عليهما :

ـ نعم .. كنت مارة امام المصنع فى طريقى الى

ولكنها توقفت ولم تدر ماذا ينبغى ان تقول .. كانت تريـد أن تشرح له موقف اليوم السابق ، ولكنها لم تدر كيف تبدأ الحديث فى موضوع دقيق كهذا . واخيرا قررت ان تتحدث فى موضوع آخر ، على أمل أن يتحول الحديث الى الاتجاه المنشـود . ومن ثم راحت تحدثه ، والدموع فى عينيها ، عن موت مدام بيجارو ، جارتهـا فى البيت ، قائلة :

ـ تصور ان زوجها العربيد تحول الآن الى تعذيب ابنته الكبرى التى لا تزيد فى العمر على ثمانية أعوام ؟ انها فى هذه السن تتصرف كأم حانية مع اختيها الصغيرتين .. انها ترتب الغرفة وتنظفهـا وتغسل ملابسهما ، وتعد لهما الطعام ، فاذا جاء أبوها العربيـد مخمورا ، انهال عليها بالضرب حتى يدمى جسدها الصغير .. وتتحمل المسكينة قسوة ابيها دون أن تشكو لاحد حتى لا تغضبه !

ومسحت جرفيز دمعة انحدرت من عينيها ثم أردفت قائلة :

ـ امس فقط رايتها مربوطة الى عمود السرير .. لقد قيدها ذلك الوحش فى العمود منذ الصباح الى المساء .. ومع ذلك اخذت ترعى اختيها الصغيرتين وهى مقيدة ، وتطلب منهما أن يفعلا هذا أو ذاك تحت اشرافها .. ولمـا اردت ان افك رباطها ، ابت مستعطفة وقالت انها تخشى أن يغضب أبوها اذا عرف أن أحدا دخل الغـرفة واطلق سراحها ..

ومرة أخرى مسحت جرفيز دموعها ثم أردفت قائلة :

ـ اننى كلما رايت قوة احتمال هذه الصغيرة ، ومبلغ حبها لابيها رغم قسوته ، أحسست اننى انسانة تافهة بجانبها .. يبدو ان لبعض الناس قدرة خاصة على احتمال الالم

وقال كوجيت متحدثا لاول مرة وهو يعبث بعود نباتى صغير بين اصـــابعه

ـ لا أظن أن هناك انسانا تألم كما تألمت انا أمس .. اننى لاستطيع ان أصف لك مبلغ ألمى

وشحب وجه جرفيز ، وتقلصت عضلات يديها ،وعجزت عن التلفظ بكلمة . واستطرد هو يقول :

ـ كنت أعرف عن يقين ان هذا ما سوف يحدث بينكما . ولكننى كنت ارجو فقط ان تثقى بى وان تصارحينى بالحقيقة حتى لا أظل مخدوعا فى ..

ولم يستطع ان يستكمل حديثه .. ووثبت هى واقفة وقد ادركت انه يظن ـ كبقية الجيران ـ انها عادت الى احضان لانتيير . ومن ثم بسطت يديها وهتفت بحرارة :

ـ لا .. لا .. اقسم لك ان شيئا من هذا لم يحدث . لقد دفعنى الى ركن المحل وكان يريد أن يقبلنى .. ولكنه لم يستطع .. ان وجهه لم يلمس وجهى . وكانت تلك أول محاولة له بعد عودته . أقســم لك على هذا بحياتى ، وبأبنائى وبكل شىء مقدس

ولكن الحداد الشاب هز راسه فى ارتياب . انه لايستطيع ان يثق بها .. ان النساء عادة ينكرن كل شىء . وعندئذ قالت جرفيز ببطء وبلهجة جادة تماما :

ـ انك تعرفنى يامسيو كوجيت .. وتعرف اننى لااكذب .. واقسم لك بشرفى اننى لست على علاقة جنسية من اى نوع بلانتيير . ولن تقوم بينى وبينه مثل هذه العلاقة .. ابدا . واذا حدث هذا يوما ، فلن اكون جديرة بصداقة انسان شريف مثلك

وكانت لهجتها ، ونبرات صوتها ، ونظرات عينيها ، تنم كلها عن صدقها . وانبهر كوجيب ، وتراقص قلبه ، وكانت تلك اول مرة يمسك فيها يدها .. وقد ظل ممسكا بها ، بعد أن جلست مرة أخرى بجواره

وبقيا على هذا النحو فترة طويلة دون حديث . وأخذا ينظران الى الافق البعيد ، والى تلال مونمارتر بأبراجها ومنازلها ومداخنها ..

وقالت جرفيز فى النهاية :

ـ ان أمك لم تعد تحبنى . لا تنكر .. ان لها الحق .. فقدأصبحنا مدينين لكما بمبالغ طائلة

ولكنه وقفها عن الاستطراد بالضغط على يدها حتى آلمها . انه لا يريد ان يسمعها تتحدث عن المـال . وأخيرا قال :

ـ انصتى الى . اننى اريد ان اقول لك شيئا منذ مدة طويلة ،انك لست سعيدة فى حياتك .. لقد اخبرتنى أمى ان الامور تتحول من سيىء الى اسوأ فى حياتك !

وتوقف عن الحديث برهة قبل ان يستطرد قائلا بصوت مختنق:

ـ ولهذا يجب علينا ان نرحل معا ..

ونظرت اليه برهة دون ان تفهم شيئا .. لقد أدهشها بحديثـــه المفاجىء عن حبه لها .. هذا الحب الذى لم يعبر عنه من قبل بكلمـــة واحـــدة

وقالت له متسائلة :

ـ ماذا تعنى ؟ !

فاستطرد يقول وهو يطرق براسه الى الارض

ـ نعم .. يجب ان نرحل معا الى أى بلد آخر .. الى بلجيكا اذا اردت ان بلجيكا تكاد تكون وطنا ثانيا لى .. ويمكننا هناك ان نعمل معا وان نسعد بالحياة معا ..

واحمر وجهه وتوقف عن الحديث . ولو انه عانقها فى تلكاللحظة، لما دهشت أكثر من دهشتها لما سمعت ! أن العمال حولهما فى كلمكان

يعرضون غرامهم على النساء والبنات .. وان العلاقات الجنســـية تنتشر بينهم ببساطة كانها شىء طبيعى . ولكن لم يحاول واحد منهم أن يهرب بحبيبته او بعشيقته كما يفعل « بنات الذوات » المترفون !

ولم يسعها الا ان تغمغم قائلة :

ـ كوجيت .. كوجيت :

ولم تجد ما تقوله اكثر من هذا . واستطرد هو يقول :

ـهلم نرحل الان .. لنترك كل شىء وراءنا .. لنذهب بعيدا عن

الناس واحقادهم . انني حين أحب انسانة ، يؤلمني أن أراها مع الغير .

وجمعت نفسها اخيرا ، ورفضت قائلة باسلوب منطقي :

ــ ان هذا مستحيل يا كوجيت . ان هذا خطأ كبير . ألا ترى ذلك ؟ انني زوجة ، وأم . وأنا اعرف تماما مدى اهتمامك بأمري . وأعرف انني لا اقدم لك سوى الالم . ولكننا لو استجبنا لنزواتنا ، فلن نجني الا الندم والحسرة . ان امرك يهمني ايضا .. بل يهمني الى حد اني اكره أن اراك ترتكب حماقة تندم عليها ، لان هربنا على هذا النحو يعتبر حماقة كبرى . اننا الان نتبادل الاحترام ، والحب النبيل .. ولكن اذا طاوعنا رغباتنا فسوف يتحول احترامنا المتبادل الى ازدراء ، وحبنا السامي الى كراهية .

وأومأ برأسه وهو منصت اليها .. وبدا عليه انه متفق معها في كل كلمة قالتها ، وفجأة تناولها بين ذراعيه في ضوء النهار الساطع وضمها الى صدره بقوة جنونية ، وأطبق على فمها بفمه في قبلة طويلة طويلة .. تركتهما لاهثين بضع لحظات .. وأطلقها من يديه بعد ذلك .. انه لم يكن يريد منها اكثر من هذا . وانه لن يعرب لها عن حبه باكثر مما فعل .. وانتفضت هي في ابتهال وانتشاء وقد شعرت انهما ــ على الاقل ــ جديران بهذه اللحظة السعيدة .

واستدار كوجيت بظهره اليها حتى يكبح جماح رغبته العارمة في أخذها مرة اخرى بين ذراعيه . ثم انحنى على ركبتيه فوق العشب وراح يشغل نفسه بجمع بعض الزهور البرية المختلفة الالوان ثم صنع منها باقة جميلة ، ووضعها في السلة .. وبعد ذلك اخذ يقتطف الزهور ، الواحدة بعد الاخرى ويقذف بها الى السلة وهما يضحكان كطفلين سعيدين . وفي العودة ، كانت السلة مليئة بالزهور البرية الذهبية والقرمزية .

***

ولكن جرفيز ، في أعماق نفسها ، كانت غير واثقة بقدرتها على الاستمرار في مقاومة لانتيير .. حقا لقد عقدت العزم على ألا تسمح له يوما بلمسها .. مجرد لمس ، ولكنها تخشى اذا هو لمسها ، واذا هو اخذها بين ذراعيه ، أن تستسلم لضعفها الغريزي .. ضعفها

الذي يدفعها دائما الى ارضاء الغير ولو على حسابها ، ومن ثم تعود الى أحضانه ٠

ولكن لانتيير ، من جانبه لم يكرر المحاولة ٠ لقد انفرد بها اكثر من مرة بعد ذلك ٠ ولكنه لم يفعل شيئا ٠٠ وكان يبدو مشغولا ببائعة الفاكهة ٠٠ امرأة في الخامسة والاربعين ، ولكنها محتفظة بجمالها وشبابها ٠ وقد حدثت جرفيز كوجيت بأمر بائعة الفاكهة هذه وعلاقاتها بلانتيير حتى تزيده يقينا ٠٠

ولما عادت فرجيني ومدام ليرات الى محاولاتهما لاعادة العلاقة بين جرفيز ولانتيير قالت لهما أنه يستطيع أن يستمتع بحياته مع النساء بدونها ، لان جميع النساء في الشارع يتسابقن الى ذراعيه !

وكان كوبيو من ناحيته يعلن في كل مكان أن لانتيير شاب ممتاز ٠٠ وليقل الناس ما يقولون ، فهو وحده الذي يعرف الحقيقة ٠٠ يعرف أن لانتيير يحافظ على شرفه كأي صديق أمين ٠ وماذا يهمه من أقوال الناس ما دام يعرف ان الحق في جانبه ٠ وكان اذا خرج ثلاثتهم في أيام الاحاد يصر على أن يجعل جرفيز تسير بجانب لانتيير مباشرة ، واضعة ذراعها في ذراعه ، بينما يسير هو في المقدمة ، متلفتا حوله كأنما يتحدى الجميع ٠ وفي الوقت نفسه كان يسخر من لانتيير لانه يحسن القراءة والكتابة ، ويتحدث كالمحامين ولا يشرب حتى يفقد الوعي ٠ وفيما عدا هذا كان يعتبره احسن صديق ٠

ولم يكن لانتيير يتردد في استغلال هذه الصداقة لصالحه ، فكان يقترض من جرفيز بضعة فرنكات بين الحين والاخر ، مؤكدا انه سيرد الدين كله عندما يظفر بالعمل المناسب ٠ وكان بهذه المبالغ ، يمضي مع كوبيو ، ويقضي معه النهار كله ، أو جزءا من الليل في الشراب ٠٠ وكان كوبيو يشرب حتى يفقد وعيه تماما ، بينما يصر لانتيير على تمالك صوابه ٠٠

وفي خلال هذه الفترة كان كوبيو لا يعمل في الاسبوع الا يوما او يومين ، وقد ينصرم الشهر كله دون ان يعمل يوما واحدا ٠٠ وحتى اذا خرج ذات يوم حاملا حقيبة ادوات العمل ، فانه لا يلبث ان يضع الحقيبة تحت مائدة احدى الحانات عندما يلتقي ببعض

أصدقائه المتعطلين ، ومنهم لانتيير ، ثم يمضى اليوم كله ، متنقلا معهم ، من حانة الى اخرى ، ومن مطعم الى آخر ، حتى يعود فى ساعة متأخرة من الليل فاقد الوعى تماما ..

وفى ليال كثيرة ، عندما لا يكون لانتيير معه ، يعود كوبيو الى مسكنه محمولا ، من فرط السكر ، على أيدى أصدقائه ..

وفى ذات ليلة كان كوبيو قد وعد جرفيز بأن يصحبها الى حفلة موسيقية فى مسرح « الميوزيك هول » . ولما تجاوزت الساعة الثانية دون أن يحضر ، رأت لانتيير مقبلا بكل اناقته ، فسألته عن كوبيو فقال لها فى غير اهتمام :

ــ لقد تركته فى الساعة الخامسة مع بعض الاصدقاء فى حانة البابيلون .. وكان ينوى أن ينتقل معهم الى حانة أخرى ..

وضربت جرفيز الارض بقدمها وقالت وهى تقرض باسنانها :

ــ هذا الحيوان العربيد !

وانتهى الامر الى أن صحب لانتيير جرفيز الى قاعة الموسيقى ، ولما انتهت الحفلة فى الحادية عشرة مساء ، اتخذا طريقهما الى البيت . ولكنهما وقفا أمام البيت مدة طويلة يصلصلان الجرس على غير جدوى ، وقال لانتيير فى النهاية :

ــ يبدو أنهم جميعا مستغرقون فى النوم ..

وأخيرا فتحت مدام بوش لهما الباب ، ودخلا ، ثم اعطتهما ــ وهى نصف نائمة ، مفتاح المسكن ، وقالت لهما أن الشرطى بواسو أحضر كوبيو وهو فى حالة يرثى لها من فرط السكر ..

وما كادت جرفيز تفتح باب مسكنها الخاص ، حتى تسمرت فى مكانها مرتعدة بينما قال لانتيير وهو يضع يده على أنفه :

يا للهول هذه الرائحة الكريهة .. انها رائحة قاتلة ..

وكان الضوء الخافت فى الفناء ينساب من الباب المفتوح ويلقى بعض الضوء على غرفة نوم جرفيز .. وكانت الغرفة والاثاثات والفراش كلها ملوثة بما أفرغه كوبيو من بطنه وأمعائه .. وكان هو راقدا مخمورا فاقد الوعى تماما فى هذه المباءة الرهيبة التى كانت رائحتها تدير الرأس من فرط الاشمئزاز والتقزز ..

ونظرت جرفيز الى زوجها الراقد على هذا النحو ، مفتوح الفم ،

تحرك انفاسه المخمورة بعض السوائل القذرة المتراكمة حول رأسه، ثم قالت فى فزع :

ـ هذا الحيوان .. هذا الحيوان ! لقد افسد كل شيء .. ان الكلب يأبى أن يفعل بنفسه هذا

وشعرت انها لن تستطيع أن تلمس هذا الحيوان المخمور ولـــو بملقاط ، فكيف يمكنها ان تنام معه فى غرفة واحدة !

وقالت كأنما تحدث نفسها :

ـ لو كان فى امكانى ان انام فى الشارع لفعلت . ولكن على أن أبحث عن ركن نظيف فى هذه المباءة لارقد فيه حتى الصباح ..

ثم تقدمت فى حذر ونفور خطوة ، وحاولت أن تخطو فوق كوبيو ، وأعتمدت بيدها على خزانة الادراج حتى لا تنزلق فى المباءة ، ولـــكن كوبيو كان يسد الطريق أمامها الى الفراش . ومن ثم أمسك لانتيير ـ الذى يضحك فى نفسه بيدها ، وهمس اليها قائلا بصـــوت معسول :

ـ جرفيز .. انصتى الى .. جرفيز !

وادركت ما يعنيه ، فانتزعت يدها من يده ، وتمنعت قائلة :

ـ لا لا .. يا أوجُست .. هذا غــــير ممكن .. اذهب أنت الى غرفتك ودعنى وشأنى .. لسوف أجد ركنا أنام فيه حتى الصباح .

ـ جرفيز .. اسمعى .. لا تكونى حمقاء .. ان هذه الرائحة وحدها يمكن أن تسممك .. أن تخنقك .. ماذا تخشين .. انه لا يسمعنا ..

ولكنها أبت ، وهزت رأسها بعنف ، وفى سورة ارتباكهـــا ، أو لعلها أرادت ان تؤكد له انها لن تنام خارج غرفتها ، خلعت معطفها وقذفت به فوق خزانة الادراج ، ثم ثوبها ، ووقفت بقميصـــها الداخلى الذى كشف عن جسدها الممتلىء المشحون بالجـــاذبية الجنسية .. وحاولت مرتين أن تصل الى سريرها ، ولكنها فى كل مرة كانت تتراجع حتى لا تتلوث قدمها بالاقذار الرهيبة المحيطة بالزوج المخمور .. وكان لانتيير من جانبه يعـــرقل محاولاتهـــا ، فيمسكها من خصرها ويهمس لها بغرامه المضطرم ، وبرغبتـــه العارمة للعودة اليها ، مؤكدا لها انه لم يحب امرأة طيلة هـــذه السنوات كما يحبها .. وتمادى فى همساته التى جعلت دماءهـــا

تغلى بالعاطفة ، ولم تلبث أن وجدت نفسها بين زوج أقرب الى الحيوان منه الى الانسان ، وبين رجل تافه يعرف كيف يستغل الظروف لمصلحته · ولما رفع لانتيير طبقة صوته قليلا ، طلبت منه أن يصمت ، ثم ارهفت السمع الى الغرفة الاخرى التى تنام فيها نانا — ابنة العاشرة من العمر — والجدة العجوز مدام كوبيو · ولاح لها أنهما مستغرقان فى النوم وهى تسمع أنفاسهما الرتيبة العالية الصوت ··

وقالت للانتيير فى يأس :

— أرجوك ·· دعنى وشأنى يا أوجست ·· دعنى والا استيقظت ابنتى نانا ·· كن عاقلا ·· لسوف استجيب لك فى مكان آخر ·· وفى وقت اخر ·· لا تنس أن ابنتى الطفلة نائمة هنا ··

ولم يقل شيئا ، ولكنه ابتسم ثم ترك اذنها ، وقبل عنقها قبلة طويلة حاره شعرت على اثرها بقواها تتخاذل · وسرت فى جسدها رعدة عارمة ·· وحاولت مع هذا ان تتقدم الى سريرها ، ولكنها لم تلبث أن تراجعت ·· لا ان دخول الغرفة والنوم فيها من المستحيلات ان احساسها بالاشمئزاز والتقزز كان اقوى منها ، وان الرائحة الكريهة سوف تسممها ولا شك اذا مضت ليلتها فى تلك الغرفة ، وان زوجها فاقد الوعى الى حد عدم الاهتمام او الشعور لو ان رجال الشارع كلهم جاءوا ليقضوا الليلة مع زوجته ··

وتمتمت اخيرا فى يأس تام :

— ليكن ما يريد اذن · انه المسئول ·· يا الهى ·· انه هو الذى يحرمنى من فراشى النظيف · لم يعد لى فراش انام عليه ·· ليكن هو المسئول عن كل شىء ··

وارتعدت ، واحست انها لا تدرى على وجه التحديد ما هى فاعلة ، وفيما كان لانتيير يدفعها الى غرفته الخاصة ، كان وجه الطفلة نانا يبدو من وراء زجاج الباب الفاصل بين غرفتها وغرفة والديها · وكانت قد استيقظت لتوها ، ونهضت من فراشها شاحبة خائفة ، واطلت من وراء الزجاج فرأت أباها فى مباءته ، ورأت امها بقميص النوم ، وهى تختفى مع الرجل الاخر ، فى الغرفة الاخرى ، وظلت واقفة برهة · يطل من عينيها الفضول الجنسى ! (١)

---

(١) كتب اميل زولا عن « نانا » هذه قصة مطولة ترجمتها روايات الهلال باسم « غانية باريس »

الفصل الحادى عشر

مزيد من الانحدار

مرضت مدام كوبيو العجوز فى ذلك الشتاء مرضا شديدا جعلها تلازم الفراش بضعة اسابيع • ورغم تناوب جرفيز وابنتيها فى رعايتها ، فقد اخذت طباعها تسوء ، وصارت ضيقة الصدر متوترة الاعصاب لاتفه الاسباب • ولم تكن تتردد فى اغتياب جرفيز الى ابنتيها مدام لوريليو ومدام ليرات ، واغتيابهما امام جرفيز • وفى ذات ليلة ، بعد مشادة حامية بينها وبين جرفيز اثناء النهار ، قالت هامسة لابنتيها الجالستين بجوارها فى غرفة نومها :

ـ كيف تجرؤ هذه العرجاء على اهانتى ؟ الا تعرف انى رأيتها ذات ليلة منذ اسبوعين وهى تدخل مع عشيقها السابق لانتيير الى غرفته ؟ !

ثم راحت تحدثهما بما سمعت فى تلك الليلة كلمة كلمة اثناء تظاهرها بالنوم • واخذت تسرد تفاصيل ما وصل الى اذنيها خلال الباب الفاصل بين الغرفتين ، غرفتها وغرفة لانتيير ، حتى ساعة متأخرة من الليل •• وربما الى الصباح ، لانها ، رغم مقاومتها للنوم ، لم تلبث ان استسلمت له ••

واستطردت تقول :

وأسوأ من هذا كله أن نانا سمعت كل شىء ايضا • وكانت طوال الليل تتقلب فى فراشها رغم اعتيادها على الاستغراق فى النوم •

ولم ترتسم الدهشة على وجهى الابنتين ، وانما قالت مدام لوريليو :

ـ لا شك أن هذه العلاقة بدأت منذ اليوم الاول من اقامته معها فى مسكن واحد ••

ثم اردفت قائلة :

ـ واذا كان كوبيو راضيا عن هذا الوضــع ، فان شرف الاسرة لا يقبله ..

وقالت مدام ليرات وهي تلوي شفتيها :
ـ لو اني رأيت ما حدث لاصدرت صوتا او حركة تفزعهما .. بل ما كنت لاتردد في أن أفاجئهما .. لقد اخبرتني خادمة طبيب ان عشيقين فوجئا وهما في هذه الحالة فاصيبا بالشلل فورا ..

وسرعان ما عرف الجيران جميعا في الشارع ، والشوارع المجاورة ان لانتيير يقضي معظم لياليه مع جرفيز .. وكانت مــدام لوريليو تعرب عن استنكارها الشديد لهذا الوضع ، وتتهم اخاها بالضعف والتخاذل والجبن . واجتمعت كلمة الجيران على أن جــــرفيز هي المسئولة عن كل هذا ، فهي التي اغرت الشاب المهذب لانتيير بالعودة اليها ، وهي التي تشجع زوجها على شرب الخمر كل ليلة الى حد السكر ليخلو لها الجو مع عشيقها . وفي الوقت نفسه ، حــافظ لانتيير على حب الجيران له ، وظل يقدم للنساء الحلوى والزهور ، ويجامل الرجال بالعبارات الرقيقة وكئوس الخمر ، ومن ثم اخــذ الجميع يعتذرون عنه .. انه رجل ، وماذا يستطيع الرجل ان يفعل ازاء امرأة لا تكف عن الجري وراءه ، لقد أصبحت ولا شك وصمة عار في جبين شارع لاكوت دور ..

وفي خلال هذا كله ، كانت جرفيز تمضي في طريقها المنحــدر .. وكانت في أول الامر تمضي في تخاذل واستسلام وتشعر انها امرأة شريرة مذنبة لا تعرف معنى الحياة ، ومن حقها ان تشمئز من نفسها وكانت كلما خرجت من غرفة لانتيير أسرعت وغسلت يديها وعنقهــا وكتفيها وكانما تريد أن تزيل كل اثار قبلاته عن بشرتها ، وإذا حاول كوبيو ان يقبلها أو يغازلها أو ينال حقه منها كزوج ، في نفس الليلة التي سلمت فيها نفسها لانتيير ، ثارت وتمردت ، وابت أن تستجيب له في اصرار كامل . وكذلك كان موقفها مع لانتيير ، اذا كان كوبيو قد نال حقه منها كزوج ..

كانت في أول الامر تفضل ان تموت على أن تلقى بنفســها بين أحضان رجلين في ليلة واحدة .. ولكنها لم تلبث ـ تدريجيا ـ أن استسلمت للامر الواقع واصبحت تعاشر الرجلين كان العلاقة بينها

وبينهما أمر طبيعى لا يستحق عناء التفكير او الشعور بالاثم • لقد تعبت من كثرة المقاومة ، وكان ميلها الغريزى الى الراحة والتماس البهجة من أقصر طريق ، قد جعلها تأخذ الامر على علاته دون عناء التفكير في الاسباب والمسببات . ان كل همها ان تعيش راضيـــة لا تؤذى أحدا ، ولا تسمح لاحد ان يؤذيها •• وطالما ان زوجها وعشيقها راضيان ، قانعان بهذا اللون من الحياة ، فلماذا تحمـــل هى الهم عنهما ؟ ! وعلى هذا النحو اصبح مسلكها الشائن عادة تمارسها بلا تفكير او شعور بالذنب . فكانت تقضى كل ليلة ـ يأتى فيهـا كوبيو مخمورا فاقد الوعى ، مع لانتيير فى غرفته الخاصة • وكان هذايحدث دائما فى أيام الاثنين والاربعاء والجمعة من كل أسبوع • بل أمست فى الايام الاخرى تترك فراش زوجها ـ عندما يشـــــتد غطيطة ، وتستكمل الليلة فى فراش لانتيير . ولم يكن يدفعها الى هذا حـب للانتيير ، وانما لانها كانت تجده أنظف وأحسن رائحة من زوجهـا العربيد • وعلى الجملة كانت مثل القطط ، تبحث عن المكان النظيف المريح لترقد فيه ..

وفى ذات يوم ، بعد مشادة عنيفة بينها وبين مدام كوبيو ـ لـم تستطع العجوز أن تستمر فى كتمان السر ، فصارحتها بما تعرفه عن علاقتها بلانتيير ،وهنا انفجرت جرفيز معترفةبهذه العلاقة ،وصاحت قائلة انها ليست اسوا من غيرها .. بل ليست اسوأ من مدام كوبيو فى شبابها ، فان الجميع لا يزالون يتحدثون عن مغامراتها مع الرجال ، وان اية امراة فى المنطقة لا تستطيع ان ترفع عينيها فى وجهها ، لانها تعرف عنها ما يندى له الجبين خجلا •• واذا كانت هى على علاقة برجل واحد غير زوجها ، فان لكل امراة فى المنطقة عشاقا بعدد الايام والليالى فى أعمارهن •

ثم لوحت بيدها نحو النافذة وقالت :

ـ ان المنطقة كلها تعيش فى حمــــأة من الجنس •• ان الرجال والنساء والاباء والابناء والبنات يعيشون كالحيوانات •• فيتمرغون فى الوحل •• ليس فيهم رجل واحد نظيف أو امرأة واحدة شريفة •• انني أعرف كل شيء •• ان رائحة الجنس تفوح من كل بيت •• ان الفقر يكوم الرجال على النساء فى استهتار رهيب . ولو انك صنعت

منهم جميعا .. من هؤلاء الرجال والنساء ، خليطا ، لحصلت على كمية هائلة من الروث تكفى لتغطية شوارع باريس كلها !

وبعد أن تنهدت قليلا ، أردفت قائلة :

ويحسن أن تتركى كل انسان وشأنه . ولا تنسى أنك الان شريفة رغم أنفك .. ولو عاد اليك صباك وجمالك لكنت سابقتنا فى هذا المضمار .

وشحب وجه المرأة العجوز ولم تجب بشيء . ولكنها انتهزت فرصة حضور كوجيت فى اليوم التالى ، أثناء غيبة جرفيز عن المحل، فاستدعته الى الجلوس على مقعد بجوار الفراش ، ثم تحدثت معه طويلا . وكانت تعرف نوع الحب القدسى الذى يحمله الشاب لجرفيز ، والذى كان يدفعه الى بذل كل معونة لها كلما ارتبكت أحوالها المالية .

ولما نهض الشاب لينصرف ، كان يترنح ويعتمد على الجدران فى سيره لفرط ما كان يخامره من الحزن والاستياء وخيبة الرجاء . وما أن عادت جرفيز من الخارج ، حتى قالت لها حماتها العجوز ان مدام كوجيت تريد أن تسرعى اليها بالملابس الخاصة بها سواء تم غسيلها وكيها أم لا ..

ودست جرفيز ملابس مدام كوجيت وابنها فى السلة وهى شاحبة الوجه مكتئبة السمات ، تشعر فى أعماق نفسها بالخجل والحرج ، لقد بلغت الديون التى عليها لهما أكثر من أربعمائة وخمسين فرنكا بعد أن توقفت عن التسديد تماما . وكانت لا تزال تعيش ليومها فقط ، وعلى نفس المستوى من الحصول على كل شيء بالدين . وكان أثقل شيء عليها زيارتها الاسبوعية لمدام كوجيت التى لم تكن تتردد فى تقريعها ولومها وتوجيه كل عبارات التنديد بتصرفاتها اليها . وفى هذه المرة اشتدت حملة مدام كوجيت عليها الى حد جعل الدموع تطفر الى عينى جرفيز . وقد قالت لها مدام كوجيت فى معرض اللوم:

ـ أترين ! لقد أصبحت مهملة حتى فى عملك الذى ترتزقين منه . لقد تركتك العاملات جميعا كما تتهرب الجرذان من السفينة الغارقة .. وأصبحت الان لا تفرقين بين ملابس العملاء . فها أنت تأتين الى بملابس عملاء غيرى بين ملابسى .. ولا شك أن هذا يحدث مع كل

عميل ، فلا عجب أن تتدهور أحوالك المالية ٠٠ ولولا أبنى لاتخذت الاجراءات اللازمة لاعلان افلاسك ٠٠

وفى تلك اللحظة سمعت جرفيز من الغرفة الاخرى الخاصة بكوجيت ، صوته وهو يقول فى تعب وارهاق :

ـ أماه ٠٠ كفى هذا يا أماه ٠٠

وامتقع وجه جرفيز ، وتمتمت قائلة :

ـ هل المسيو كوجيت هنا ؟ ماذا به ٠٠ أهو مريض ؟!

ـ نعم مريض ٠٠مريض بعد أن عرف الى أى حد يمكن أن تتمرغ المرأة فى الوحل ٠٠ الى أى حد يمكن أن تتآمر مع زوجها وعشيقها لاستغلال طيبة قلب شاب مثله على الاستيلاء على أمواله ٠٠

وهنا صاح كوجيت بصوت أكثر ارتفاعا وحدة :

ـ أماه ٠٠ أماه ٠٠ أرجوك ٠٠

واسرعت جرفيز الى غرفة كوجيت فوجدته راقداعلى وجههفوق الفراش وقد تمزقت الوسادة تماما وتطاير الريش منها ٠ لا شك انه كان يمزقها بيديه وأسنانه من فرط الانفعال والالم ٠

ولما شعر بها فى غرفته ، همس لها قائلا :

ـ لا تغضبى أو تحزنى من حديث أمى ٠ انك لست مدينة لى بشىء ٠ وهذا كل ما أستطيع أن أقوله الان ٠

فهمست جرفيز قائلة فى جزع :

ـ انك لست على ما يرام يا مسيو كوجيت ٠ ماذا بك ؟

ـ لا شىء ٠٠ اطمئنى ٠ لقد أرهقت نفسى فى العمل اليوم ٠ لسوف أنام الان ٠٠ انصرفى بسلام ٠

ولكنه لم يلبث أن هتف بعد أن عجز عن كتمان ما يصطرع فى نفسه :

ـ يا الهى ٠٠ يا الهى ٠٠ ما كان ينبغى أن تفعلى هذا ٠ أبدا ٠٠ لقد أقسمت لى بأنك لن تفعلى هذا ٠٠ ولكنك فعلته ٠٠ فعلته ٠٠ يا الهى ٠٠ لشد ما جعلتنى أتعذب

لماذا .. لماذا ؟! ارجوك أن تنصرفى .. انصرفى ..

وحنت جرفيز رأسها ، وغادرت الغرفة فى سكون ٠ وكانت مدام كوجيت قد عادت الى عملها فى التطريز بالغرفة الاخرى ، فلما رأتها قالت لها :

ــ انصرفى الان يا مدام جرفيز وارسلى القطع الناقصة من ملابسنا ، وسوف نسوى حساباتنا فيما بعد ..

وغمغمت جرفيز بكلمات الموافقة ، وانصرفت وهى تتمنى ــ فى كل خطوة ، لو انشقت الارض وابتلعتها .

***

ولكنها لم تلبث أن عادت بعد أيام قليلة الى طبيعتها .. الى الرغبة الدائمة فى الاستمتاع بيومها دون التفكير فى غدها .. وما دامت تجد فى اليوم ثلاث وجبات كاملة دسمة ، وبضع كئوس من النبيذ ، وفراشا نظيفا تقضى فيه الليل ، سواء مع لانتيير أو مع كوبيو ، فهو يوم سعيد فى حياتها .. أما فيما عدا هذا فلا يهمها شىء .. لينتظر الدائنون حتى تتمكن من تسديد ديونها .. وليذهب عملاؤها الى الجحيم ، فانها أحوج ما تكون الى الراحة منهم ومن ملابسهم القذرة ..

ومن الطبيعى عندما يدخل الفقر والكسل من الباب ، تخرج النظافة من النافذة . وهكذا لم يلبث المحل والمسكن أن صارا مباءة للقذارة والاهمال ، ولم تكن جرفيز تفكر فى تنظيفهما الا اذا عجزت عن التجول فيهما أو اذا خشيت أن يعلق نسيج العنكبوت المتدلى من الاسقف بشعرها .. ومع هذا كانت جرفيز هانئة فى حياتها بعد أن تعودت عليها . وكانت تزداد امتلاء مع الكسل ووفرة الطعام ، وتزداد تبلدا كلما ازدادت أحوالها ارتباكا . وقد بلغ بها الامر أن صارت تهمل فى ملابسها وفى نظافتها ، فهى تسير بملابس داخلية مهلهلة ، وبوجه لم تغسله ، وتنام فى فراش يزكم الانوف برائحته ، وكأنما أصبحت هذه الرائحة وهذه القذارة لونا من المنحدر الذى يهدهد احساساتها ، ويبلد مشاعرها . وكذلك فقدت احساسها بالامانة والشرف . فهى لا تفكر فى تسديد ما عليها من ديون ، فاذا رفض أحد التجار التعاون معها ، افتتحت حسابا جاريا مع تاجر آخر فى شارع بعيد ، وهكذا اصبحت مدينة لجميع تجار المنطقة ، وصار لزاما عليها أن تتسلل ــ عند الخروج من المسكن ــ حتى لا يراها أحد أو يطالبها أحد بما عليها من ديون له .

وكان كوبيو بدوره يزدهر خلال هذا الانحدار الشديد فى طريق

الحياة ، فكان يزداد بدانه على الخمر والطعام الكثير ، وكان يتحسس بطنه التى تبدو كالطبلة بعد اكلة عارمة ، ويقول انه يحمل تميمة تقيه شر مضار الخمر والاسراف فى الطعام . وكلما حدثته زوجته عن احوالهما المرتبكة ، ضحك ساخرا وقال انه لا يهمه فى هذه الحياة الا أن يأكل حتى تمتلىء معدته ، والا أن يشرب حتى يفقد الوعى ، وما عليها هى الا أن تدبر أمورها وأن توفر له حاجته من الطعام والشراب .

وكذلك كان الحال مع لانتيير .. كان يزدهر ولكنه كان يحرص على الا يزداد وزنه .. وقد جعل حزامه مقياسا لمحيط بطنه ، فاذا وجد انه ازداد سمنة ، ولو بمقدار بسيط ، ثار وغضب واتهم جرفيز بأنها تحاول ان تجعله يبدو بطينا حتى يفقد جاذبيته للنساء . واذا وجد ان وزنه نقص — ولو بمقدار قليل ، ثار أيضا واتهمها بأنها تحاول أن تقتله بسوء التغذية . وكان اذا رأى كوبيو ينهال عليها بالسباب والشتائم لامر ما ، اشترك معه ، وكأنه — مثله — زوجها ، ومن حقه أن ينهال عليها بنفس المقدار من الشتائم والسباب . وكانت فى بادىء الامر تثور على هذا الوضع ، ولكن الانسان — لحسن الحظ — يعتاد على كل شىء بمرور الزمن ، وهكذا أخذ ظلم الاثنين لها ينزلق على نفسها انزلاق الماء على السطح المنحدر الاملس ، بل جاء الوقت الذى كانت تفضلهما فيه وهما ثائران عليها ، على ازعاجها برغباتهما الجنسية . وهكذا كان عليها أن ترضيهما ، وأن تدللهما ، وأن تلبى رغباتهما ، وأن تتحمل قسوتهما ، وتستجيب لنزواتهما ، حتى اذا جاءت نهاية الاسبوع ، شعرت برأسها يدور ، وعظامها تتكسر ، وعينيها شبه مخبولتى النظرات .

وعلى الجملة كان الاثنان يتباريان فى استهلاكها ، وكانت هى لا تعرف ان كان كوبيو يعلم بعلاقتها بلانتيير أم لا .. ولكن المؤكد انه لم يشر يوما الى انه يعلم بشىء من هذا حتى فى أعنف ثوراته وهو مخمور . وماذا لو علم ؟ ألم يفقد مثلها كل احساس بالشرف ؟ الم يعد كل ما يهمه فى الحياة أن يشرب حتى يسكر ، وأن يملأ بطنه بالطعام ، ثم يجرى وراء كل بغى تغمز بعينها !

وأخيرا جاء اليوم — فى شهر ديسمبر — الذى لم تجد فيه جرفيز

كسره خبز فى خزانة الطعام • ولما علم لانتيير بالامر ، تحـــول الى فرجينى وزوجها وأصـــبح يتردد عليهما ويتنــاول معهما الطعام والشراب .. وبنفس الاسلوب الذى خدع به كوبيو ، خدع الشرطى بواسو ، وأصبح ـ من ورائه ـ شريكا له فى طعامه وفى زوجته ، دون أن ينفصل ـ من ناحية المسكن ـ عن آل كوبيو .

وفى ذلك الشتاء ، ماتت مدام كوبيو العجوز ، واضطرت جرفيز أن تستدين مبلغا اخر من كوجيت لتوارى المرأة العجـــوز الثـــرى ، فبعد أن رفضت ابنتاها أن تسهما بشىء فى اجراءات دفنها • وبعد ان فرغ الجميع من مواراتها الثرى ، قال كوبيو للذين عادوا معه من المدافن :

ـ أيها السادة والسيدات •• دعونى أقدم لكم بعض الشراب

ثم تقدمهم الى حانة شارع ماركديت . ولما حاول الشاب كوجيت الذى كان بين المشيعين ، أن ينصرف ، استبقته جرفيز وطلبت منه ان يشرب مع الجميع كأسا من النبيذ . ولكنه أعتذر قائلا انه يريد العودة الى عمله بالمصنع ، ثم نظر كل منهما الى الاخر طويلا •• وأخيرا قالت له جرفيز :

ـ اننى آسفة لازعاجك بطلب هذا المبلغ الاخير لدفن مدام كوبيو لم اجد أحدا الجأ اليه فى هذه المحنة غيرك .

فقاطعها الشاب قائلا :

ـ لا عليك •• لا عليك •• أنت تعرفين أننى لا أبخل عليك بشىء وانا دائما تحت امرك فى كل أزمة ، ولكن ارجوك الا تقولى شـــيئا لامى ، لانها ستزداد حزنا لو علمت . وانا لا احب أن احزنها .

ونظرت اليه برهة .. الى وجهه الوسيم الممتلىء بالطيبة وحب الخير . وخطر لها أن تقبل اقتراحه للرحيل معا فى تلك اللحظة . ولكن فكرة شريرة طرات عليها فجاة ، ورات ان تستغل هذا الحب القوى الذى يحمله لها وتطلب منه قيمة الايجار المتأخر عليها للمالك ، وكان هذا قد هددها بالطرد اذا لم تدفع له مبلغ المائة فرنك فى خلال أسبوع .

وقالت بصوت متهدج :

ـ اننا ما زلنا صديقين حميمين يا كوجيت •• أليس كذلك ؟

فأومأ برأسه وقال :

ـ نعم .. سوف نبقى دائما صديقين حميمين .. ولكن يجب أن تدركى أن كل ما كان بيننا من حب قد انتهى .. انتهى الى الابد .

ثم استدار ومضى فى طريقه بخطوات واسعة .

وظلت كلماته ترن فى اذنيها كأجراس الكنائس معلنة الحداد وفيما هى تلحق بزوجها وضيوفه فى الحانة كانت تردد لنفسها فى حزن عميق :

ـ لقد انتهى كل شىء .. الى الابد !



الفصل الثانى عشر

فى القاع

ومرت خمسة اعوام بطيئة رهيبة ، لم تدر جرفيز كيف عاشتها .. لقد باعت خلالها المحل ، وأقامت فى غرفة صغيرة بأعلى المنزل تطل على الفناء ، وعادت تشتغل عاملة فى محلات الغسيل والكى .. ولكنها كانت بسبب اهمالها وكسلها واستهتارها — لا تلبث أن تطرد من العمل .. وبلغ بها الامر ان أصبح كل همها ان تجد ثمن كسرة خبز وبعض الطعام لتقيم أودها .. وكانت ابنتها نانا قد التحقت بالعمل مع عمتها مدام ليرات فى مشغل الزهور الصناعية . وكانت الفرنكات القليلة التى تحصل عليها كل أسبوع لا تكاد تكفى لاطعامها هى وأمها فضلا عن حاجة أبيها الدائمة الى الشراب . وفى ذات يوم انهالت عليها أمها بالتقريع والسباب حين علمت أنها ، أى نانا ، اعتادت على مصاحبة الشبان والرجال فى غيرأوقات العمل ، والجلوس معهم فى المطاعم والحانات . ولما تكررت حملات الام على ابنتها لهذا السبب ، قالت لها الفتاة ثائرة ذات يوم :

— هذا يكفى يا أماه .. لا تتحدثى عن الرجال .. اننى انصحك . انك تفعلين ما تريدين ، وأنا سأفعل ما أريد ..

ثم تلفتت حولها فى جوانب المسكن العارى :

— أم تريدين أن أموت هنا جوعا ؟!

وتمتمت جرفيز قائلة فى ذهول :

— ما هذا الذى تقولينه يا نانا .. ؟

— اقول الحقيقة .. اننى لم اشأ ان أصارحك بما اعرف ، ولكن لقد آن الاوان لاقول لك اننى كثيرا ما رأيتك تدخلين غرفة لانتيير ليلا وأنت بقميص النوم .. عندما يكون أبى مستغرقا فى النوم . انك لاتهتمين الان بهذا كله .. ولكن غيرك يهتم .. ولهذا فلا داعى لان

تلقى على مواعظك .

وتحركت جرفيز فى جوانب الفرفة كالطائر المذبوح ، لا تدرى ماذا تفعل أو تقول .. وانصرفت الفتاة ، وصفقت الباب وراءها ..

ولم تعد بعد ذلك .

أما كوبيو فقد بدأ ينهار تدريجيا تحت وطأة الخمر .. وفى ذات يوم سقط مريضا بالتهاب رئوى . فلما حمل الى المستشفى وعولج ، راح يضرب رأسه فى الجدران طالبا الخمر . وحمله المسئولون الى مصحة الامراض العقلية حيث ظل ستة اشهر خرج بعدها وهو يقسم الا يذوق الخمر فى حياته .. ولكنه لم يلبث بعد أيام أن عاد الى الشراب تدريجيا .. وسقط مرة أخرى فاقد العقل ، وحمل الى المصحة للعلاج ! وهكذا انقسمت حياته الى قسمين قسم لتغيبه داخل المصحة للعلاج ، وقسم لتغيبه خارجها بين كئ ى الخمر .

وكان طبيعيا أن ينتهى به الامر الى أن يصبح أمثوبه بين الناس .. لقد فقد وزنه ، واصبح اقرب ما يكون الى الهيكل العظمى ، يسير مرتعد الاطراف ، أحمر الانف ، لا يهمه الا أن يحصل على الخمر بكل وسيلة ، وكان الذين يعرفون حقيقة عمره ، يرتعدون اشفاقا ولا يصدقون أنه فى الاربعين فقط . ذلك لانه كان يسير محنى القامة مرتعد الاطراف ، هزيلا ، شاحبا مجعد الوجه وكأنه فى الثمانين من العمر . وحتى صوته ، تغير وأصبح متحشرجا رهيبا يخدش الاذان .

ولم يكن يطلب لادرانه هذه كلها غير دواء واحد .. هو المزيد من الخمر .

وكان طبيعيا أن يهجر لانتيير الاسرة تماما كما يفعل الجرذ مع السفينة الغارقة ، واتخذ مكانه بين فرجينى وزوجها بواسو .. ولكن بواسو ـ رغم سذاجته وطيبة قلبه ـ لم يلبث أن اكتشف هذه العلاقة حين عاد ذات ليلة من نوبته قبل موعده .. ولم يتمالك الزوج المخدوع اعصابه فأطلق النار عليهما من غدارته ..

وبرأته المحكمة حين ثبت لها بالدليل القاطع انه أطلق النار عليهما هما فى وضع يفقد أى زوج صوابه .

***

وازدادت سرعة الانطلاق فى الطريق المنحدر ، نحو الهاوية وأن

جرفيز لا تكاد تذكر متى بدأت المرحلة الاخيرة فى ذلك الطريق المظلم الطويل .. لعلها كانت يوم السبت التالى على اســـتحقاق ايجار الشقة لربع السنة الاخير ٠٠ فى اليوم الثانى أو الثالث عشر من شهر يناير ٠ ان جرفيز لم تكن واثقة بالتاريخ بعد أن فقـــدت الاحساس بمرور الايام ، بل وبعد أن نسيت متى تناولت آخر وجبة طعام ساخنة شهية ٠ آه ٠٠ يالفظاعة ذلك النصف الاول من شـــهر يناير ذاك ! انها لم تظفر فيه الا برغيف خبز زنته أربعة أرطال ظلت تتبلغ به اسبوعا كاملا كسرة بعد كسرة .. ثم التهمت بقايا الخبز المتحجرة من الايام السابقة ، وانتهى كل شىء يؤكل فى الغرفة .. وانصرمت ست وثلاثون ساعة دون أن تنوق طعاما ٠٠ والاسوأ من هذا أن الجو كان رهيبا فى برودته ، والسماء مظلمة مثقلة بالغيوم الداكنة ، وبالثلوج التى تأبى أن تتساقط . وليس من شك فى أن اقسى محنة يمكن ان تمر بالانسان ، هى محنة الجوع والبرد القارس حين يجتمعان معا .

ولكن من يدرى .. لعل كوبيو ان يحضر معه شيئا يؤكل هذه الليلة ، لقد قال لها فى الصباح انه وجد عملا .. ان كل شىء ممكن .. وان جرفيز لا يسعها الا آن تغالط نفسها وتوحى اليها ان فى مقدور كوبيوأن يعمل ولو لمدة يوم واحد ، وان يحصل على بضعة فرنكات تقيهما غائلة الجوع يوما أو يومين ، أما هى ، فانهالم تجد ــ بعد تجاربها المريرةفى العمل ــ مكانا يمكنها فيه أن تعمل ، ولو غسالة أو خادمة ٠ففى اخر مرة طردتها امرأة عجوز من بيتها لانها لم تعد تصلح حتى لغسيل الاطباق ومسح البلاط ، كما اتهمتها بأنها تسرق منها الطعام ، لم يعد هناك أحد يقبلها .. لم يعد هناك صاحب عمل يرضى ان يعهد اليها بشىء لقد فقدت كل مؤهلاتها للقيام بأى عمل ترتزق منه ٠ وكانت فى قرارة نفسها سعيدة بهذا الوضع بعد ان وصلت فى منحدر الطريق الى المرحلة التى تفضل فيها الموت على القيام بأى عمل مجهد حسنا ٠٠ اذا أحضر كوبيو أجره فى هذا اليوم ، فسوف يجدان ما يأكلانه الليلة ٠ ولماكان الوقت لا يزال عصرا ، فقد رقدت على الحشية الموجودة على ارضية الغرفة ، وقررت أن تبقى هكذا حتى يعود كوبيو ، لان الرقاد هو الملاذ الوحيد من الجوع والبرد

وكانت جرفيز تسمى الخرقة البالية التى تنام عليها حشية بحكم العادة ، اما الحقيقة فانها لم تكن غير خرقة محشوة بكمية قليلة من القش فى ركن الغرفة . وكان السرير ، بملحقاته ، قد وجد الطريق ، شيئا فشيئا ، الى تاجر « الربابيكيا » وكان هذا السرير ، بما عليه ، آخر شيء بقي لديها من الاثاث التى باعتها ـ خلسة ـ لتأكل بثمنها ، وكانت هى وكوبيو يبيعان الاثاثات القليلة المتبقية لديهما خلسة ، وفى جنح الليل ، حتى لا يشعر بهما البواب بوش ويخطـــــر مالك البيت الذى كان يعتبر هذا الاثاث ضمانا لايجار الغرفة المتأخر .

وقد بدات بيع السرير اولا بتناول خفنات بعد حفنات من نشـــارة الخشب المحشوة بها الحشية وبيعها نظير مبالغ زهيدة تكفى لشراء كمية صغيرة من البن لصنع القهوة او رغيف خبز صغير ، ولما فرغت نشارة الخشب باعت كيس الحشية الخارجى ، ثم اعقبته بالوسائد .. وبقى السرير الحديدى . وفى ذات ليلة انتهزت مع زوجها فرصـــــة انشغال بوش وزوجته بالاحتفال ببعض الضيوف ، وفكا اجزاء السرير ، وحملاه ليلا الى بائع « الربابيكيا » نظير عشرة فرنكات ، وسعدا بهذا المبلغ ثلاثة ايام .

وظلت جرفيز راقدة على الحشيه الحقيره فى ركن الغرفة ، طاوية قدميها تحت ثوبها المهلهل لتحميهما بعض الشيء من لذعة البرد . وكانت وهى مكومة على نفسها هكذا ، مفتوحة العينين ، تستعرض فى ذهنها مختلف الافكار . لا .. لا .. من المستحيل ان يستمر الانسان فى حياته على هذا النحو .. بدون شيء يأكله ، انها الان لا تشعر بالجـــوع الشديد ، وانما تحس فقط بثقل فى معدتها ، وبخواء فى ذهنها ، وليس من شك انها لا يمكن ان تجد فى اركان غرفتها الاربعة ما يسر الخاطر .. انها احقر من رجاء كلب .. بل ان الكلاب المترفة التى تسير بجوار سادتها فى الشارع الان تأبى ان تنام فى جحر كهذا وان نظراتها الجوفاء لتتأمل الان جدران الغرفة العارية ، لم يعد هناك شيء يمكن ان يباع .. وحتى المدفأة ، لم يعد فيها عود حطب واحد يمكن ان يشتعل ويطرد بعض البرد عن جو الغرفة ، نعم .. لقد باعت فى سبيل الطعام والشراب ، كل شيء حتى مشط الشعر الحديدى .. آه .. لو كانت تجد مشترين للقذارة والاتربة والقمامة ، لافتتحت محلا لبيع هـــذا

كله مما تمتلىء به اركان غرفتها . انها ترى فى أركان السقف كمات كبيرة من نسيج العنكبوت ، وهذه الانسجة قد تكون نافعة للعنكبوت، ولكن ليس هناك من يقبل شراءها . واخيرا اشاحت بوجهها ، وازدادت انكماشا فى نفسها ، وراحت تنظر الى السماء المكفهرة المثقلة بالغيوم والثلوج والبرد الذى ينفذ الى العظام .

ما هذا القلق كله .. لماذا تجهد نفسها وتملأ قلبها بكل هذا اليأس ، آه لو استطاعت ان تغفو قليلا ! ولكن كيف تغفو وهى تتذكر انصاحب الملك ارسل ينذرها بالطرد اذا لم تدفع الايجار المتأخر ستة اشهر . حسنا .. ليطردوها .. ان حياتها فى الشوارع لن تكون اسوا مما هى فيه الان . ولكن .. اما كان الاجدر بصاحب البيت هذا ان يرسل اليها شيئا قليلا مما لديه .. بعض البقايا من مائدته ، لتقتات به ، بدلا من أن يهددها بالطرد ؟ عليه اللعنة . ثم اين ذلك الاحمق الملعون كوبيو .. لماذا لم يحضر حتى الان . لقد اعتاد ان يحضر عندما لا تريده ، لكى ينهال عليها بالضرب والسباب .. أما الان ، وهى فى اشد الحاجة اليه ، فانه يتاخر فى الحضور .. عليه هو الاخر لعنة الارض والسماء . وهى؟ ماذا كانت تفعل معه ؟ انها لم تكن بطبيعة الحال تستسلم لضرباته ساكتة .. وانما كانت تعضه وتخمشه وتتصارع معه فى انحاء الغرفة حتى يتهالكا عاجزين عن كل حركة . ولكنها قد اعتادت على هذا كله الان .. قد يغيب كوبيو اياما واسابيع .. وقد يفقد عقله بالخمر اياما واسابيع ، وقد يعيش كل ليلة مع امرأة اخرى ، وقد يأتى كل ليلة ليضربها ويسبها .. ان هذا كله لم يعد له أى تأثير على نفسها بعد أن اعتادت عليه ، ان كل ما تشعر به نحو هذا كله هو السأم والملل ، هذا هو كل شىء .

وفى مثل هــــذه الايام كانت تتمنى ان تراه فى الجحيم .. هو وآل لوريليو ، وآل بوش ، وصاحب البيت ، والجميع ، الى الجحيم كل الذين ينظرون اليها بنفور واحتقار . الى الجحيم كل باريس .. وانها لتخرج لسانها للدنيا كلها .

ولكن الانسان ــ لسوء الحظ ــ قد يستطيع اعتياد كل شىء ، الا ان يعيش بلا طعام .. وكان هذا أسوأ ما يواجه جرفيز فى حياتها ، انها على استعداد للاعتراف امام الدنيا بأنها احقر مخلوقة ، وانها اقذر من

بالوعة المجارى ، وان من حق الناس ان يبتعدوا عنها حتى لا يلمسوها بأطراف اثوابهم عند مرورهم بالقرب منها ، ان هذا كله لا يقتل أو يكسر عظاما ، ولكن الجوع هو الذى يقتل ويهشم كل ذرة فى الجسم ، انها لم تعد تأمل فى مجرد النظر الى الاطباق الشهية .. بل انها لم تعد تصدق انها اقامت ذات يوم حفلة بمناسبة عيد ميلادها قدمت فيها كميات هائلة من الطعام والشراب لاربعة عشر مدعوا ..! ان كل مايهمها الان ان تجد شيئا ، أى شيء ، يمكن ان يؤكل .. كسرة خبز جافة ، أو عظمة بها بقايا من نثار اللحم ! لقد كانت اشهى وجبة لديهـــا فى الاسابيع الاخيرة ان تحصل على كمية من بقايا اللحم التى لا تباع من الجزارين ، ثم تسلقها بحبات من البطاطس ، ثم تلتهمها مع كرات من الخبز ، وحتى هذه الوجبة لم تعد تجد السبيل اليها .. ولم تعد كذلك تستطيع الذهاب الى الابواب الخلفية فى مطابخ المطاعم لتشترى كمية من مخلفات اطعمة الزبائن بأزهد مبلغ من المال . واحيانا كانت تتسول كسرات الخبز من هذه المطاعم وتلتهمها .. واسوأ من هـــذا كانت تشترك مع الكلاب الضالة فى نبش اكوام القمـــامة للبحث عن الكسرات وبقايا الطعام قبل أن يأتى جامعو القمامة ويحرموها من هذه المتعة ! وبهذه الوسيلة كانت فى بعض الاحيان تظفر بأطباق وفيرة من الليمون المعطن ، والعظام المتعفنة والخبز المقدد ، وبقايا السمك ، نعم .. لقد وصل بها الامر الى هذا الحد . ان الانسان قد يتقزز ممـــا وصلت اليه ، ولكن ، ماذا يستطيع أى انسان ان يفعل اذا عاش ثلاثة أيام بلا طعام ؟ الا تكون هذه الاشياء المتعفنة والمتعطنة وجبات شهية لمعدته المعذبة بالجوع ! الا يكون للانسان العذر ــ امام قسوة الجوع ــ اذا هو انحنى على يديه وقدميه وأكل من القمامة اذا وجد اليها سبيلا؟! آه .. ما اقسى الجوع على الفقير ذوى المعدة الخاوية ، هذا الجوع الذى يحوله الى وحش يكشر عن انيابه ، ويملأ فمه بالالفاظ المقذعة ، وهو يسير فى شوارع باريس المتألقة بالذهب والترف ! ان جرفيز لتذكر كيف كادت تقتل كوبيو عندما خرج يوما لشراء خبز ، فأنفق المبلغ الزهيد على الخمر . لقد كادت تتحول الى مجرمة قاتلة بسبب الجوع وقسوته .

وظلت جوفيز تحملق فى السماء المكفهرة حتى غلبها على امرها النوم

المضطرب المليء بأحلام الخبز واطايب الطعام . ولكن هذه الاحلام لم تلبث ان تحولت الى كابوس ، اذ حلمت ان العاصفة انفجرت ، وانهمرت السماء بسيول جارفة اغرقتها .. فانتفضت فزعة من نومها وقد سرت فى جسدها رعدة اليمة ، يا اله السماء ؟ هل تقرر ان تموت جائعة فى النهاية ! ونظرت مرة اخرى الى السماء فوجدت ان النهار لم ينحسر بعد ، يالبطء مرور الوقت عندما لا يكون لدى الانسان الجائع ما يأكله .

وأحست كأن معدتها قد استيقظت أيضا وشرعت تعـذبها ، وحنت رأسها وطمرته بين ركبتيها وجمعت يديها تحت ثوبها لتحميهما من البرد ، وشرعت تفكر فيما سوف تأكله عندما يعود كوبيو بأجر عمله فى ذلك اليوم ، كمية من الخبز ، وزجاجة نبيذ ، وشريحة من لحم البقر/ ودقت الساعة الرابعة فى غرفة اللحاد بازوج المجاورة لغرفتها ، ان الساعة لا تزال الرابعة فقط ، وانفجرت جرفيز باكية من فرط اليأس والجوع ، انها لن تجد القوة الكافية للانتظار حتى السابعة ، موعد عودة زوجها ، واخذت تتمايل يمينا ويسارا كطفلة تتألم ، وتضـغط على معدتها لتخفف من آلامها ، آه .. ان الام الوضع اهون كثيرا من الام الجوع ! واستبدت بها سورة من الغضب المفاجيء ، فراحت تتمشى كحيوان سجين داخل الغرفة ، آملة ان يهدها التعب لتنام مرة اخرى ، وظلت نحو نصف ساعة وهى تتخبط فى جدران الغرفة الخاوية ، وفجأة توقفت وحملقت بعينيها ! نعم .. ليقولوا ما يريدون قوله . انها على استعداد لان تقبل اقدام الد اعدائها .. لوريليو وزوجته نظير اقراضها نصف فرنك .

لقد اعتاد جيرانها ، سكان البيت الفقراء ، ان يتبادلوا القروض طوال فصل الشتاء ، ولكنهم جميعا كانوا يفضلون الموت جوعا على الذهاب الى آل لوريليو لاقتراض شيء منهما ، اذ كان المعروف عنهما انهما على استعداد لرؤية أى انسان يموت جوعا أمامهما دون أن يقدما له نصف فرنك قرضا .

واحتاجت جرفيز الى كل معينها من الشـجاعة لتنقر على باب مسكنهما ، وكان قد بلغ بها الخوف والقلق وهى فى الطريق اليهما ان شعرت بالارتياح الكامل عندما استطاعت فى النهاية أن تطرق الباب ، تماما كمايفعل المريض عندما يطرق باب طبيب الاسنان !

وسمعت من الداخل صوت لوريليو وهو يقول بجفاء :

ــ ادخل ..

آه .. ما امتع الوقوف داخل المسكن .. ان النار متوهجة فى اتون صهر السبائك ، وقد بلغ من دفء المكان ان العرق كاد يلمع على وجهى لوريليو وزوجته وهما منهمكان فى عملهما . وهناك ايضا تلك الرائحة الشهية رائحة حساء اللحم المتصاعدة من اناء على النار . ان هـــذه الرائحة فقط جعلت جرفيز تترنح فى مكانها ، كأنها سكرى .

ودمدم لوريليو دون ان يدعوها الى الجلوس :

ــ آه .. اهذه انت ؟! ماذا تريدين ؟

ان جرفيز لم تكن فى حالة خصام مع الزوجين فى ذلك الاسبوع ، ومع هذا انعقد لسانها فى فمها حتى لا ينطق بطلب القرض . وكانت قد رأت البواب بوش جالسا فى ركن الغرفة ، يضحك كالوحش ، ويردد ما لديه من فضائح عن الجيران والسكان .

وعاد لوريليو يقول :

ــ ماذا تريدين ؟

واخيرا قالت جرفيز متلعثمة :

ــ الم ير احدكم كوبيو ؟!

وضحك البواب بوش ، ولوريليو .. وقال هذا الاخير :

ــ لا .. اننا لم نعد نراه ، لاننا لم نعد نقدم اليه كاسا من الخمر بين الحين والاخر

وبذلت جرفيز جهدا عميقا لتقول مرتبكة :

ــ لقد وعد ان ياتى الى ببعض المال الليلة ، وبما انى الان فى اشــد الحاجة الى نصف فرنك

وخيم الصمت العميق الذى لم يكن يقطعه الا ازيز النيران فى الاتون وحسيس المنفاخ الذى يضرم النار . وحنى لوريليو رأســه فوق السلسلة الذهبية التى يصنعها ، وفتح بوش فمه فى ضحكة حيوانية رهيبة ، بينما اكملت جرفيز حديثها المضطرب قائلة :

ــ نصف فرنك فقط .. الا يمكن اقراضى نصف فرنك فقط .. سوف أرد هذا القرض الليلة .. أقسم على هذا

واستدارت اليها مدام لوريليو بنظرات نارية .. نظرات مشحونة

بكل ما ارادت ان تقوله لها .. انها الان تقترض نصف فرنك ، وغدا سوف تقترض فرنكا .. وماذا سيمنعها من الاستمرار فى الاقتراض الى مالا نهاية .

وصاحت فى النهاية قائلة :

– لالا .. يا عزيزتى ، انك تعرفين تمام المعرفة اننا لا نملك مالا . أنظرى الى جيبى ! انه أنظف من الاناء الخزفى بعد غسيله .. يمكنك أن تفتشينى اذا شئت . كان سيئى جدا لو استطعت أن ألبى رغبتك ..

وقال لوريليو بصوت كالدمدمة :

– ان الانسان يسره ان يقدم خدمة بسيطة كهذه لمعارفه لو كان ذلك فى مقدوره

وحنت جرفيز رأسها فى ذلة وهوان . ولكنها لم تنصرف ، وانما ركزت نظراتها على الذهب .. اسلاك الذهب المعلقة على الجدران .. شذرات الذهب الموضوعة على المائدة .. حلقات الذهب فى السلسلة التى يعمل فيها لوريليو ، سبيكة الذهب التى تتناولها مدام لوريليو من الاتون وتعمل على سحبها اسلاكا ، وفكرت فى ان ذرة صغيرة من هذا الذهب يمكن ان توفر لها وجبة طعام شهية . واذا كان المسكن فى الواقع يبدو فى ذلك المساء قذرا مزدحما بأدوات العمل ، الا انه كان فى نظر جرفيز قصرا متألقا بالذهب ، ومن ثم تجرأت وعادت تقول :

– لسوف ارد لكما القرض الليلة . ان نصف فرنك ليس بالمبلغ الكبير الذى سأعجز عن رده !

ولم يطاوعها قلبها الكسير ان تعترف لهما بأنها لم تتناول كسرة خبز منذ يوم ونصف يوم ، وتخاذلت ساقاها فجأة ، وطفرت الدموع الى عينيها وهى تتوسل قائلة :

– ارجوكما .. لن انسى لكما هذا الجميل .. يا الهى .. اننى لا استطيع ان ......

وزم لوريليو شفتيه ونظر الى زوجته ! لقد انحدرت « العرجاء » الى هاوية التسول ، لقد وصلت اخيرا الى القاع ، وان عليهما بعد ذلك ان يغلقا بابهما دونها تماما .. لن يسمحا لها حتى بمجرد الوقوف امامه ، ان الانسان الذى يصل الى هاوية التسول ، لا يتردد فى سرقة

اى شىء يقع بين يديه ، وانهما ليعملان فى الذهب ، عليهما ان يحرصا على سورة رزقهما ، والا انتهى بهما الحال الى هذا المنحدر !

ولما حاولت جرفيز ان تقترب منهما بعض الشىء ، صـــاح لوريليو محذرا :

ـ انتظرى .. لا تتقدمى خطوة اخرى والا علقت بعض شذرات الذهب فى نعلى حذائك . ومن يدرى .. فلعلك تتعمدين هذا .

وتراجعت جرفيز ببطء ، ورفعت كفيها الى اعلى وقالت فى مزيد من الذلة والهوان :

ـ اننى لم آخذ شيئا .. اننى لست سارقة ..

ثم انصرفت بعد ان خشيت من السقوط مغشيا عليها لفرط ما احست به من دوار بسبب رائحة مرق اللحم

وقال لوريليو لزوجته بعد انصرافها :

ـ لقد تخلصنا منها اخيراً ..

وقالت الزوجة :

ـ انها تستحق اكثر من هذا . وان هذا اقل ثمن تدفعـــه بسبب سيرها فى الطرق الملتوية من الحياة!



الفصل الثالث عشر

جسد للبيع!!

لم تستطع جرفيز أن تعود الى غرفتها الموحشة الخاوية الباردة ، ومن ثم هبطت درجات السلم وهى لا تدرى كيف من فرط الذهول ، وكان اليأس قد بلغ بها حدا جعلها تتمنى الموت .

وانطلقت فى الطريق تلعن القدر حتى وصلت الى المبنى الذى زعم لها كوبيو انه يعمل فيه ، وكانت ساقاها هما اللتان قادتاها الى المكان، وكانت معدتها قد عادت الى تعذيبها، وراح الجوع يتمشى فى أوصالها ، ولو أنها أمسكت بكوبيو — وهى فى هذه الحالة — أثناء خروجه من المبنى ، لانتزعت النقود منه ، واسرعت الى اقرب مكان لشراء حاجتها من الطعام .

وكان عليها ان تنتظر نحو ساعة حتى يحين موعد انصراف العمال ، وكان المبنى محاطا بسور مرتفع ليس فيه غير باب حديدى لخـــروج العمال ودخولهم ، وكان يقع فى شارع كاربونيير فى تقاطعه بشارع دىَ شارنر ، أى فى مفترق لعين تلسعك فيه الرياح البـــاردة من كل جانب ، ولم يكن الانتظار سهلا حتى مع التمشى ذهابا وجيئة التماسا للدفء . وكانت السماء لا تزال مكفهرة فى لون الرصاص ، والثـــلج المتراكم فيها يغطى المكان كله بخوذته الجليدية ولم يكن ثمة تساقط للجليد ، ولكن السكون الرهيب كان مخيما منذرا بكساء جــــــديد لباريس .. كساء ابيض جميل كأنه ثوب راقصة باليه . ونظرت جرفيز الى السماء وابتهلت ألا تتساقط الثلوج الا بعد انصرافهـــــا ، وضربت الارض بقدميها ونظرت الى البقال فى الجانب الاخر ، ثم اشاحت بوجهها وهى تدرك انه لاجدوى من النظر الى الاشـــياء التى تزيد جوعها سعارا . ولم يكن هناك مايلفت النظر فى الشارع .. عدد قليل من المارين المسرعين المدثرين حتى العيون ، وهذا أمـر طبيعى ،

. لا يعقل ان يتسكع احد فى جو بارد منذر بالجليد كهذا . ومع هذا قد لاحظت جرفيز أربع أو خمس نساء يقفن مثلهـا أو يتمشين أمام المبنى . نساء بائسات مثلها ينتظرن أزواجهن العمال لينقذن الاجور من الذوبان فى الحانات القريبة . وكانت بينهن امرأة ضخمة الجسم ، لها وجه كوجه الشرطى ، واقفة بجوار الباب ، متحفزة للوثوب على زوجها بمجرد خروجه ، وكانت هناك امرأة اخرى صغيرة الجســـم ، رقيقة الملامح سوداء الثياب ، تروح وتجىء على الجانب الاخـــر من الشارع ، وامرأة ثالثة شاحبة الوجه ، أحضرت معها طفليها اللذين كانا يبكيان ويرتعدان من البرد . ولم يكن هناك حاجة الى ان يتعارفن فيما بينهن .. لقد كن جميعا زميلات تحت شعار واحد « الفقـر وشركاه » . وكان منظرهن رائحات أتيات فى ذلك الجو الرهيب من شهر يناير ، يزيد فى النفس الشعور بالبرد والاسى .

واخيرا فتح الباب وخرج احد العمال ، ثم تبعه ثان وثالث ، ولكـن هؤلاء كانوا ــ كما يبدو ــ مواطنين صالحين ، يحملون أجورهم الى بيوتهم رأسا ، والدليل على هذا انهم كانوا يهزون رءوسهم فى أسى حين رأوا النساء المنتظرات . وظلت المرأة الضخمة متحفزة بجوار الباب ، وفجأة انقضت على عامل صغير الجسم كان يخرج متلفتا فى حـذر ، وسرعان ما فتشته واستولت على أجره ، وتركته يتبعها باكيا كطفل . وخرج عامل ضخم الجسم ، فلما رأى المرأة ذات الطفلين ، أسرع عائدا ليحذر زوجها . واستطاع الزوج ان يخفى فى حذائه جزءا من أجره ، ثم خرج وحمل أحد الطفلين ، وسار امام زوجتـــه وهو يكيل لها السباب .

أما الزوجة الصغيرة الرقيقة ، فقد خرج زوجها ، ودفع بها بعيدا عنه ، وسارلا يلوى على شىء ، ومضت هى منكسرة الجناح ، تبـــكى بحرارة .

وانقطع أخيرا خروج العمال . ووقفت جرفيز فى وسط الشـــارع تحملق فى ذهول الى الباب المفتوح . ثم خرج عاملان اخران ، وسألتهما جرفيز عن كوبيو ، وهز العاملان رأسيهما ، وقال أحدهما أن كوبيو لم يحضر للعمل فى ذلك اليوم ، ولا فى الايام السابقة . ومعنى هذا أنه كعادته ، قد خدعها . وسارت فى شارع كاربونيير وهى ترى أملها

فى الطعام يزداد بعدا وانحسارا . واخذت ترقب الامل المتلاشى مع بقايا النهار ، وهى ترتعد بشدة . لقد انتهى امرها هذه المرة ، فلا عون امامها ، ولا أمل . وانما هناك فقط الليل والجوع ، وما اقساها ليلة باردة يجوع فيها الانسان !

وفيما هى تقترب من نهاية الشارع ، سمعت صـــــوت كوبيو فجأة .

وكان فى حانة « بتيت سيفينت » وكان صديقه مبيوتس يقدم له على حسابه كأس خمر ، وكان مبيوتس ــ المهزار ــ قد تزوج فى نهاية الصيف أرملة تكبره بعشر سنوات ، تمتلك بيتا كبيرا ، وهـكذا أصبح مبيوتس يعيش « كأبناء الذوات » ممتلىء الجيوب بالمال دون أن يعمل شيئا .

ووضعت جرفيز يدها على كتف كوبيو وهو خارج مع صديقه من الحانة ، ثم قالت :

ــ اننى فى انتظارك .. اننى جائعة . الا تعطينى شيئا اشترى به طعاما ؟

فنظر اليها برهة ثم انفجر ضاحكا وقال بصوت مخمور ؟

ــ اجائعة أنت ؟ كلى بعضك اذن ! ولا تنسى ان تتركى جزءا للغد !

وتجاهلت سخريته وتمتمت قائلة :

ــ هل تريد منى أن اسرق لاكل ؟

وحك مبيوتس ذقنه ثم قال :

ــ لا لا .. ان القانون لا يسمح بهذا .. ولكنه يسمح بأشـــــياء اخرى .

وضحك السكيران عاليا .. وسارا بعيـــدا عن جرفيز التى هتفت قائلة وهى تحاول اللحاق بهما رغم عرجها !

ــ اننى جائعة جائعة جدا . وكنت فى انتظار عودتك لتشترى لى شيئا . يجب ان تجد لى شيئا آكله .

ولما لم يجب ، قالت بصوت يمزق القلب :

ــ اذن فلن تعطينى شيئا .

وصاح قائلا :

ــ عليك اللعنة .. اذا لم تنصرفى عنى فسوف أنهال عليك ضربا

وتراجعت امام قبضة يده المرفوعة ، ثم قالت بلهجة الذى قرر امرا :

ــ حسنا جدا .. سوف ابحث عن رجل يطعمنى .

وانفجر كوبيو ضاحكا ، واعتبر كلماتها فكاهة ، وراح يحثها على تنفيذ تهديدها قائلا انها فكرة جميلة .. فى الليل .. وتحت مصباح الشارع ، يمكنها ان تظفر بما تشاء ، فاذا اصطادت رجلا ، فعليها أن تذهب به الى مطعم « كوبيكان » لان فيه غرفات صغيرة خاصة لايدخلها الخدم الا باذن خاص .

وفيما هو ينعطف بعيدا عنها ، اردف قائلا :

ــ لا تنسى أن تحضرى لى معك بعض الحلوى ، اننى احب الكعك ، واذا كان صيدك سمينا ، فاطلبى منه معطفا .. اننى فى حاجة الى هذا المعطف .

وانصرفت جرفيز مسرعة وهذه الكلمات تطاردها .. ولما وصلت الى شارع تكثر فيه الحركة ، خففت من خطوها .. ان عليها ان تسرق أو تفعل هذا ، وهى تفضل ان تفعل هذا على السرقة ، لانها على كل حال ، لن تؤذى احدا ، او تحرم احدا ، رغما عنه ، من ماله ، انها فقط سوف تضحى بشىء من كيانها هى ، واذا كان ــ ولاشك ــ ليس بالسلوك اللائق ، فان اللائق وغير اللائق يتصارعان فى نفسها ويختلطان ثم يتساويان بسبب اضطراب تفكيرها من فرط الشعور بالجوع ، والانسان عادة لا يفلسف الاشياء عندما يوشك أن يموت جوعا ، وانما هو ياكل اى شىء يقدم اليه دون النظر الى الوسيلة التى تقدم بها هذا الشىء اليه ، انه قد يفكر فى الوسيلة فيما بعد ، وقد يستنكرها ، ولكنه فى حالة الجوع ، لا يفكر الا فى أن يملأ بطنه ..

وسارت الى شارع شوسيه كلينان كورت ، وساءها أن الليل لم يتكاثف بعد ، وأخذت تروح وتجىء فى الشارع وكأنها تنتظر موعد العشاء .

وكانت المنطقة التى تتمشى فيها ، من المناطق الجديدة ، ذات الشوارع الواسعة ، والاشجار الحديثة العهد ، والانوار العصرية ، والمنازل الجديدة ، جنبا الى جنب مع واجهات او بقايا المنازل القديمة التى اخترقتها الشوارع المستحدثة .

وكانت جحافل العمال من كل صنف ولون قد بدأوا ينصرفون من اعمالهم الى بيوتهم او الحانات .. ودبت الحياة بكل قوتها فى الطرقات التى ازدحمت بالمركبات وبالرجال والنساء والفتيات .. وشعرت جرفيز مع دبيب الحياة فى الشوارع بمزيد من الوحشة والعزلة والمهانة ، وكأنها تسير فى عالم خاص لا يشعر فيه بها احد أو يراها احد !

ولكن هذه الصحوة المفاجئة ، لم تلبث أن تراجعت بعد انصراف العمال ، كل الى طريقه ، وعاد السكون مخيما ، ولم يبق فى الطرقات الا العابرون المسرعون المدثرون بالمطارف الى عيونهم ، وازداد احساس جرفيز بالعزلة وبالارهاق والمذلة ، لقد كانت فى يوم ما عاملة مثل هؤلاء العمال .. وكانت تنصرف مثلهم فى نهاية اليوم الى بيتها .. ولكنها الآن تتمنى لو استطاعت ان ترقد على الطوار لتموت ، لانه لم يبق لها اى أمل فى العمل .. لقد عملت كثيرا حتى هدت قواها ، والآن ، وقد فقدت القدرة على العمل ، او الرغبة فى العمل ، فليس امامها الا ان تموت جوعا ، تلك اذن هى النهاية .. النهاية .. لقد اختفت الشمس تماما .. وسوف يطول الليل ، يا اله السماء !لم يبق الا ان ترقد فلا تقوم .. تضع ادوات عملها الى الابد بجوارها ثم تنام بلا يقظة ، ما اجمل هذا بعد أن ارهقت نفسها بالعمل الدائب عشرين عاما ، ولكن جرفيز ، رغم الآلام ، ترتد بالذاكرة الى ايام عزها .. أيام أن كانت صاحبة محل ناجح للغسيل والكى .. وكانت لاتزال محتفظه بجمالها والتفاف جسدها وتألق شعرها الذهبى ، وانها لا تنسى ذلك اليوم الذى امضته مع بعض الجيران فى نزهة ريفية .. لقد كانت ملكة الرحلة يومذاك .. وكان الناس يلتفتون اليها معجبين بجمالها .. فماذا حدث الآن ؟ انها تنظر الى الارض .. الى بالوعة المجارى وقد خيل اليها أن تاجها .. تاج الشباب والجمال ، قد سقط منها وانزلق فيها !

وسارت جرفيز فى الشارع الطويل .. فى اى شارع طويل دون ان تدرى اين هى .. وكانت الحانات ودور اللهو والشراب قد اضاءت انوارها فاصبح الشارع كله ، من اقصاه الى اقصاه ، وعلى الجانبين ، مهرجانا من الضوء والموسيقى وصلصلة الكئوس واصوات

المغنين والشاربين .. وكانت هذه العبارة تصل اذنها كلما سارت بضع خطوات :

ـ هلم ندخل هنا لنأكل شيئا .

وكلما التفتت بسرعة وهى تحسب هذه العبارة موجهة اليها ، رأت أنها موجهة من صديق الى اخر ، أو من عاشق الى فتاته .

وكانت الابواب تفتح وتغلق بلا انقطاع . وبين الاغلاق والفتح تنساب الاصوات والنغمات ولفحات من روائح الخمـــور .. وظلت جرفيز فى مسيرها حتى وجدت أنها دارت دورة كاملة وعادت الى منطقة سكناها .. بالقرب من حانة بيير كولمبس .. وكان صاحبها العجوز قد مات ، وجددها ابنه ، وجعـــل منها ملهى ليلى صاخبـــا بالرقص والغناء والشراب . وكان الضجيج المنبعث منها يرتفع الى عنان السماء ، ويملأ الجو فى الشارع ، مما جعل المواطنين العادين المسرعين الى بيوتهم ، يهزون رءوسهم فى أسف وهم ينظرون الى ذلك الحشد العابث داخل الحانة .

ووقفت جرفيز متسمرة أمام الحانة فى الجانب المقابل تفكر وتحلم لو كان معها نصف فرنك لامكنها أن تدخل وتشرب قدحا من النبيذ وتأكل بضع كسرات من الخبز والجبن ، آه .. انها تذكر اليوم الذى جلست فيه مع كوبيو بعد الظهيرة ، تنصت الى محاولاته لاغرائها بالزواج منه ، وكان فى ذلك الحين يكتفى بشرب القليل من النبيـــذ دون الكحوليات . وكان أشد ما أغراها بالزواج منه أنه من الكارهين للخمور .. فماذا حدث ، ولماذا أصبح أشد ادمانا من جميع أصدقائه ومعارفه ؟

وأفاقت جرفيز من أحلامها وقررت أنها اذا لم تعرض جسدها للبيع فى تلك الساعات ، فسوف تموت جوعا ، حتما .. واعتدلت فى وقفتها وسوت خصلات شعرها ، وتحركت فى ظلال الاشجار حتى لا تبدو على حقيقتها أمام الرجال المارين بها .. فقد كانت تعرف أنها لم تعد تملك ما يغرى الرجال بها .. فقد شحب وجهها وأمسى شـــعرها الذهبى المتألق مثل شواشى الاذرة ، ولم يكن ثوبها خاليا من البقع والخروق ، كما كان حذاؤها باليا رثا ..

ولم تكن بمفردها فى هذا الموقف .. بل كانت هناك ، فى ظلال الاشجار على جانبى الشارع ، نساء مثلها ، واقفات ، كأنهن أعمـــدة

صغيرة يحملقن في الطريق ، منتظرات الصيد .. وكانت بينهن امرأة ضخمة ، لها ذراعان وساقان ، كالعنكبوت .. وأخرى تضع على رأسها منديلا أصفر ، وثالثة طويلة ممشوقة القوام ، على صدرها مبدعة الخدم ، وغيرهن .. عجائز .. قذرات يرفض جامع القمامة أن يلبى رغباتهن .. ولم تدر ماذا تفعل جرفيز .. لقد كان الخوف يسرى في بدنها .. ويعقد لسانها .. وكان الاحساس بالعار والمذلة يجعلها تحس كأنها تعيش في حلم رهيب ، وظلت واقفة في مكانها نحو ربع ساعة .. وأخيرا قررت أن تستجمع شجاعتها ، وتفعل مثلما تفعل النسوة الاخريات . وانتهزت مرور رجل بمفرده ، يضع يديه في جيوب معطفه ، ويصفر بشفتيه ، وتقدمت خطوة نحوه وقالت .

– أتسمح من فضلك ؟

ونظر الرجل اليها ، ثم سار في طريقه وقد علا صفيره !

وازدادت جرفيز جرأة ، ونسيت نفسها في سورة حماسها للصيد ، وفي رغبتها الملحة الى الطعام الذى بدا أنه يزداد بعدا عنها في كل لحظة . وأخذت تسير على الطوار .. تخرج من الظلال حينا وتعود اليها حينا اخر .. وكذلك كانت النسوة الاخريات يفعلن .. يظهرن ويختفين ، كالاشباح .. وكان بعض الرجال يقفون ليتحدثوا قليلا مع هذه أو تلك ثم ينصرفوا ضاحكين ..

وكان ثمة رجال اخرون، يسيرون وراء بعض الفتيات الجميلات ، بائعات الهوى ، ويدور في سكون الليل همس المساومات .. ثم يختفي الجميع !

وكلما فشلت جرفيز في اصطياد رجل ، ازدادت غضبا والحاحا ، وغيرت مكانها من شارع الى اخر ..

– أتسمح من فضلك ؟

ولكن الرجال كانوا يمرون بها وكأنهم لم يسمعوا شيئا .. ولكنها لم تتراجع ، وكأن حياتها كلها مركزة في هذه العبارة .

– أتسمح من فضلك ؟

ولم تلبث أن رأت خيالها ، تحت مصباح ، في الشارع .. خيالها وهي تعرج بشدة . وكان الخيال – أو الظل – يتجمع وينبسط كلما تحركت وسارت على قدمها العرجاء . يا الهي .. ما أعجب هذا ! إنها

لم تتصور من قبل المدى الذى وصلت اليه فى انحدارها • ولكنها مع هذا لم تلبث أن رددت هذه العبارة حين مر بجوارها رجل :

ــ أتسمح من فضلك ؟

وبدا لها أن الليل قد أوغل وان المحال قد أغلقت أبوابها •• نعم •• ان المطاعم قد أغلقت أبوابها ، وخفتت الاضواء فى الحانات ، وتحولت الاصوات الصادرة منها الى أنفاس متحشرجة وهمســـــات مخمورة ، وانتهت أصوات الغناء والبهجة الى معارك وسباب ، ورأت جرفيز فتاة وحبيبها يتضاربان أمام مدخل قاعة للموسيقى ، وسمعت الفتاة تقول لحبيبها انه حيوان قذر • وشاعت رائحة الخمر من الانفاس وملأت الجو • ووقعت معركة فى الشارع سقط على أثرها أحد السكارى ، وفر الاخرون وقد حسبوه ميتا • وسارت جماعات من السكارى وهم يولولون بالغناء الخليع ثم يسود الصمت الذى لا يقطعه غير سعال المخمورين وحشرجة أنفاسهم ، وسالت فى كثير من جنبات الشـــوارع الخمر التى لفظتها البطون •• وكان السائرون يتجنبون الخطو فوقها وهم ماضون • ولو أن أجنبيا رأى تلك الشوارع قبل أن تنظف فى الصباح ، لما صدق عينيه • ولكن السكارى كانوا فى هذه الساعات من الليل ملوكها •• ملوك هذه الشوارع وأصحابها •• انهم لا يهتمون بما يجرى فى أى مكان بالعالم •• وانما يفرغون ذرات بطونهم •• ويعودون للشرب •• ويخرجون السكاكين والمدى من جيوبهم ، وتنتهى الليلة بالجرائم ، وتجرى النساء بعيدا •• ويمضى الرجال بعيـــون حمراء كعيون الذئاب ،

وظلت جرفيز تعرج وهى تسير على غير هدى ، وكأنما قررت أن تسير حتى اخر لحظة من العمر • ويبدو أنها غفت قليلا فى سيرها ، لانها حين فتحت عينيها ، تلفتت حولها كالذى يفيق من ســـبات ، ووجدت أنها انتقلت الى شارع اخر دون أن تدرى • وحاولت أن تفكر ، ولكنها وجدت التفكير عسيرا عليها •• ترى أين ابنتها الآن ؟ لعلهـا تأكل المحار مع رجل فى مثل سن أبيها ، ولكنه واسع الثراء •• لا شك أنها الان تستغل شبابها وجمالها المذهل •• ولكن لا بد ، اذا سارت فى هذا الطريق أن ينتهى بها المطاف الى ليلة كهذه •• ولكن •• مالها ولابنتها •• انها تريد أن تأكل •• وأن تجد مكانا تهرب فيه من هذا الصقيع •• آه •• ان الموتى فى قبورهم لا يمكن أن

يشعروا بمثل هذا البرد !

وتساقطت الثلوج فجأة ، وزأرت الرياح ·· وأحست جرفيز كأن العالم قد أوشك على النهاية ، وتسابق المارون في الهرب من البرد والمطر والثلوج ·· وحاولت جرفيز أن تسرع الخطى ·· ولكن الى أين ؟ انها تلمح رجلا في ظل شجرة ·· وانها لتسرع اليه :

ـ أتسمح من فضلك ؟

يا للهول ؟ انه جارها العجوز المتعطل برو ·· انه واقف في مكانه يتسول، شيئا قبل أن يعود الى غرفتـــــه أو جحره الواقع تحت السلم · وابتعدت جرفيز مسرعة قبل أن يتبينها العجوز رغم نظره الاعشى ·· وظلت في سيرها وهي تحاول جاهدة أن تحتمي بالاشجار من البرد والمطر والثلوج · وتلبد شعرها ، والتصق الثوب بجسدها ، وازدادت الرعدة في أطرافها · ووصلت الى مفترق للطرق ·· ولكنها لم تعد تتبين طريقها ·· فقد كانت الثلوج تكسو كل شيء ·· حتى المصابيح التي بدت خافتة خابية الضوء · وتحت قدميها كانت الارض تتراجع ، كما خيل اليها ·· وكانت الجدران الرمادية المصنوعة من السحب الخفيفة تسد عليها كل منفذ في الطريق ، ولكنها لم تيأس ·· لقد ظلت تسير وهي تأمل أن تتبين معالم طريق تعرفه ، وأخيرا وصلت الى التقاء شارعين ·· أحدهما شارع دى ماجينا ، والاخر دورنانو ·· وخطر لها أن ترقد تحت شرفة بارزة في الشارع الاخير وتلتقط أنفاسها ·· ولن يهمها بعد ذلك أن يسفر عليها الصباح أو لا يسفر ·· ان كل ما تهفو اليه ، أن تجد مكانا ترقد فيه بعيدا عن المطر والثلوج والرياح العاصفة ·

وفي تلك اللحظة سمعت وقع خطوات رجل يقترب ·· وجمعت نفسها لتقول له عبارتها التقليدية ·· لا شك أنه فرصتها الاخيرة ·· ومن يدرى ، فلعله يصحبها بدافع الشـــــفقة ، اذا لم يكن بدافع الرغبة ··

ولكنها ، لفرط اضطرابها ، فوجئت به متجها الى الجانب الاخر ، فأسرعت وراءه لاهثة وقالت وهي تمسك بذراعه :

ـ أتسمح من فضلك ؟

ـ واستدار الرجل مدهوشا ··
واذا هو كوجيت ·· الحداد !

الفصل الرابع عشر

غضرات الحب

وشحب وجه جرفيز .. أو على الاصح ازداد شحوبا حتى أمسى كوجوه الموتى ، يا للسماء ! ماذا فعلت حتى تتعذب الى هذا الحد ؟ ان هذا الموقف هو الضربة الاخيرة .. أقسى ضربة يوجهها القدر اليها . أما يكفى تعذيبها بالجوع الرهيب حتى يجعلها تقف أمام الانســـان الوحيد الذى أحبها باخلاص ، فى هذا الوضع الشائن .. وضع المرأة التى تبيع لجسدها لكل عابر سبيل ، ترى ما هى الخواطر التى تراوده عنها الان ؟ انها ترى خيالها على الثلوج التى تكسو الشارع ، فيخيل اليها أن هذا الخيال تحول الى حيوان قمىء يتراقص ساخرا منها .. لا شك أن كوجيت يحسبها مخمورة سكرى .. مخمورة تبحث عن أحضان أى رجل مخمور مثلها فى ليلة كهذه .

وكان كوجيت فى خلال هذه اللحظات الخاطفة يحملق فيها كأنه لا يصدق عينيه ، غير حافل بندفات الثلج المتساقطة على قبعته ومعطفه ولما استدارت لتهرب منه ، أمسك بذراعها ، وتمتم قائلا :

— تعالى .

وسار هو أولا ، وتبعته هى فى استسلام . وظلا يسيران معا فى صمت خلال الشوارع القاتمة .. وكانت مدام كوجيت قد ماتت فى شهر اكتوبر السابق متأثرة بمرض الروماتيزم الحاد ، وكان كوجيت لا يزال يقيم فى نفس المسكن بشارع نيف .. وحيدا .. وكان فى تلك الليلة قد غادر المستشفى بعد أن سهر فترة طويلة بجوار زميل له أصيب أثناء العمل اصابة بالغة .

ولما وصل الى المسكن وفتح الباب وأشعل السراج ، التفت نحو جرفيز التى وقفت فى ذلة تنتظر أوامره ، ثم قال بصوت خافت كأنما أمه لا تزال بالداخل :

ـ ادخلى .

وكانت الغرفة الاولى ، الخاصة بمدام كوبيت ، قد ظلت كما هى محتفظة بآثارها وذكرياتها ، فعلى مقعد بجوار النافذة طارة التطريز ، وبجانبها المقعد الوثير الكبير كأنه فى انتظار صاحبته .. والفراش مرتب ، يمكنها النوم فيه اذا تركت المدافن يوما لتنام فى مسكنها !

وكان جو الغرفة يوحى بالسكينة والخير والسلام .

وعاد كوجيت يقول بصوت أكثر وضوحا :

ـ ادخلى ..

وتقدمت فى اضطراب مثل البغى التى تجد نفسها فجأة فى مسكن محترم . وكان هو أيضا ممتقعا ، مرتعد الاطراف لمجرد تفكيره فى أنه أحضر معه امرأة فى غرفة أمه المتوفاة . واجتاز الغرفة فى صمت ورفق كأنما يخشيان أن يسمعهما أحد ، ولما دفع كوجيت جرفيز الى الغرفة الاخرى الخاصة به ، أغلق باب غرفة والدته بسرعة . انه الان فى مملكته الصغيرة الخاصة ..وانه ليتنهـــد أخيرا فى ارتياح ، ولكن جرفيز وقفت متسـمرة فى مكانها وهى تنظر ، مرة أخرى الى هذه الغرفة الصغيرة النظيفة التى تبدو تماما كغرفة تلميذة شابة .

وانكمشت جرفيز وهى تتمتم فى ذهول :

ـ يا الهى .. يا الهى !

وكانت النيران الهادئة تتوهج فى المصطلى ، وفوقها اناء به كميـــة كبيرة من اللحم وحساء الخضر ، وكان كوجيت قد تركه على المصطلى لينضج ببطء ريثما يعود من مهمته بالمستشفى . وشعرت جرفيز ، بعد أن سرى الدفء فى عروقها ، أنها على استعداد للركوع على يديها وساقيها لتأكل من الاناء كما يفعل الحيوان الجائع . ان رائحـــة الطعام ضاعفت من شعورها بالجوع .. وجعلت معدتهـــا تتلوى وتتمزق .. وأدرك كوجيت حالتها ، فوضع الاناء بأكمله على المائدة الصغيرة ، وراح يفتت فيه كسرات الخبز ثم وضع بجانبه زجاجة نبيذ .

وتمتمت قائلة فى تخاذل :

ـ شكرا .. انك انسان طيب .. نبيل .. ألف شكر .

وعجزت يدها عن استعمال الشوكة .. لقد أفقدها الجوع كل قدرة

على تمالك أعصابها ، ومن ثم راحت تستعمل أصابعها فى التهام الطعام الذى بدأته بالتقاط حبات البطاطس الناضجة .. ثم باقى الخضر .. وانفجرت باكية عندما أحست بمذاق أول كمية من الطعـــام .. وتساقطت دموعها على الخبز والاناء ، ولكنها ظلت تأكل وتأكل فى نهم وهى تلهث ، وأرغمها كوجيت على أن تشرب بعض النبيـــذ حتى لا تختنق بالطعام وحده ، وصلصلت الكأس على أسنانها وهى تشرب ، وأخيرا قال لها كوجيت

ـ هل أفتت لك مزيدا من الخبز ؟

وبكت .. وقالت لا .. ثم قالت نعم .. ولم تدر ماذا هى قائلة .

يا إله السماء ؟ ما أعظم نعمة الطعام عندما يكون الانسان جائعا !

وظل هو فى مكانه بجوار السراج ، يحملق فيها .. لقد ذابت الثلوج التى تساقطت على رأسها وانثالت ماء بلل وجهها وملابسها ، وكان منظرها العام ، وهى منكمشة على نفسها ، مطرقة الرأس لفرط شعورها بالمذلة والهوان قد جعل الدموع تطفر الى عينى كوجيت .. آه .. لشد ما كان الحب الذى تبادلاه يوما .. ولشد ما كان يقنع ، منذ سنوات بالنظر اليها ساعات بعد ساعات دون أن يمل أو يسأم .. وما أكثر الليالى التى كان يمزق فيها الوسائد لفرط شوقه اليها ، ورغبته فيها ، ولهفته الى أخذها بين ذراعيه .. آه .. لو أنه ظفر بها فى ذلك الحين لحطم عظامها من فرط شوقه اليها وعنف عناقه لها .. والان .. ها هى أمامه .. فى غرفته .. وتحت رحمته .. يمكنه أن يفعل بها ما يريد .

وفرغت من طعامها ، ومسحت دموعها الكبيرة المتساقطة فى صمت ثم نهضت وحنت رأسها فى اضطراب وهى لا تدرى هل سيأخذها بين ذراعيه او لا . ولما رأت ومضة من بريق الرغبة فيها تلمع فى عينيه، خيل اليها أنه قرر أن ينالها ، فرفعت يدها لتفك أزرار ثوبها ، ولكن كوجيت ركع أمامها ، وأخذ يديها بين يديه وقال فى همس :

ـ اننى أحبك يا جرفيز . اننى ما زلت أحبك بنفس القوة التى أحببتك بها يوم عرفتك أول مرة .. وأقسم لك على هذا .

وفقدت السيطرة على أعصابها وقالت فى ارتياب شـــديد وهى تراه راكعا على هذا النحو أمامها :

– لا ٠٠ لا تقل هذا يا كوجيت ٠٠ اننى لا استحق منك حتى الرحمة والعطف ٠

ولما أكد لها أنه لا يستطيع أن يحب مرتين فى حياته ، وأنها ستبقى دائما حبه الاول والاخير ، قالت وقد عادت الدموع الى عينيها :

– أرجوك يا كوجيت ٠٠ انهض ٠٠ انهض ٠٠ ان الواجب أن أركع أنا أمامك ٠٠ اننى غير جديرة حتى بلمسة من يديك الطاهرتين ٠

ونهض مرتعدا ، وقال بصوت متلعثم :

– هل تسمحين لى بتقبيلك ؟

وغرقت فى بحر من الدهشة والعواطف الجياشة بحيث لم تجد ما تقوله ٠ ولكنها أومأت رأسها موافقة ، يا الهى ٠٠ ألا يعلم أنها ملك خالص له ، يمكنه أن يفعل بها ما يشاء ؟

وأخذها بين ذراعيه برفق ، ثم قبل شفتيها وهم يتمتم :

– متى ٠٠ متى ٠٠ متى نعيش معا ٠٠ الى اخر لحظة من العمر

وتمتمت هى بصوت نابع من أعماق النفس :

– كوجيت ٠٠ كوجيت ٠٠ الله يعلم أننى أحببتك حبا لم أشعر به يوما نحو رجل اخر ٠٠ ولولا شعورى بالعار والخجل لاقسمت لك اننى أحب التراب الذى تسير عليه ٠٠ ولكن لا ٠٠ لا ٠٠ اننى أصبحت غير جديرة بلمس حذائك ٠٠ وداعا يا كوجيت ٠٠ وداعا يا حبيبى !

واندفعت تجتاز غرفة مدام كوجيت ، ثم خرجت من المسكن بينما ظل كوجيت متسمرا فى مكانه ، لا يكاد يصدق أذنيه ٠

***

وفتح لها البواب بوش ، باب المنزل ، ودخلت اليه كأنها داخلة الى مأتم ٠٠ الظلام مخيم ، والسكون يرين على كل شىء – ورائحة العفن تتصاعد من الفناء ٠٠ وفتحة السلم تبدو كفم رهيب يريد أن يبتلعها ، والاصوات الخفية المفعمة برنين اليأس تتردد فى أذنيها ٠٠ أنها تسمعها كما سمعتها يوم وضعت رجليها أول مرة فى هذا البيت اللعين ٠٠ انه بيت الفاقة والآلام والاحزان واليأس ٠٠ ان الحياة فى هذه الليلة تبدو كأنها تخلت عنه ٠ ولولا غطيط البواب بوش الذى عاد الى فراشه ٠٠ ولولا بعض الاصوات الخافتة التكرار التى تتردد من مساكن الفناء ، لخيل اليها أنها تدخل مقبرة لا بيتا ٠

ولم تتمالك نفسها وهى تصعد الى غرفتها فى الطابق الخامس من أن ترسل ضحكة ساخرة المتها •• لقد تذكرت امالها فى بدء حياتها •• امالها البسيطة فى أن تعمل وتعمل •• وأن تجد دائما كفايتها من الخبز ، وأن تنام في مكان نظيف ، وأن تربى أبناءها تربية صالحة ، ثم تموت فى النهاية وهى راقدة على فراشها النظيف •

ما أجمل الامال •• وما أقسى القدر حين يعبث بها ويسخر منها ويشوهها • انها لم تعد تعمل •• لم تعد قادرة على العمل •• وانها تنام على خرقة بالية يأنف الكلب من النوم عليها ، وان ابنتها نانا ضالة فى الشوارع ، واما زوجها ينهال عليها بالضرب كلما وقعت نظراته عليها • ولم يبق أمامها الان الا أن تموت فى الشارع •• ولو كان فى مقدورها أن تختصر الطريق ، لالقت بنفسها من النافذة •• ولكنها لا تستطيع أن تفعل هذا ••

ولما بلغت الدهليز الواسع أمام غرفتها ، كانت فى حالة قريبة من الذهول • ان رأسها يدور ، وفى أعماق قلبها حزن كبير ، لانهـــا ودعت ، الى الابد ، الانسان الوحيد الذى أحبته أطهر وأنقى حب • انها لا تستطيع أن تراه بعد اليوم ، انها لن تستطيع أن تعيش معه كما عاشت مع لانتيير •• ان حبهما أنقى من أن تلوثه بهذا اللون من المعاشرة • وطالما هى زوجة لرجل اخر ، فسوف تبقى محرومة منه الى النهـــاية •

وقبل أن تصل الى باب غرفتها ، وقفت فجأة أمام باب غرفة اللحاد بازوج •• اللحاد الذى قام باجراءات دفن حماتها مدام كوبيو ، ودفن الزوجة المسكينة مدام بيجارد ، والطفلة البائسة لالى ، ابنة العربيد بيجارد فلماذا لا يتولى هو ، عملية تخليصها من هذه الحياة ؟ أليست هذه مهمته •• أن ينقل الناس عن سطح الارض الى جوفها ؟

وكان العجوز بازوج قد عاد فى تلك الليلة وهو أشد ما يكون سكرا وعربدة • وكان قد شرب من الخمر ما جعله يرقد على أرضية الغرفة غير حافل بالجو القارس • ولم تمنعه الخمـــر من أن يرى فى منامه أحلاما سعيدة كما يبدو من ضحكاته العالية أثناء النوم • ولما رأته جرفيز على هذا الوضع ، ظلت تتأوه وتتوجع حتى استيقظ وهتف قائلا فى حدة :

– عليك اللعنة .. الا تغلقين الباب . ان الجو شديد البرودة .
آه . أهذه انت .. جارتي جرفيز . ماذا تريدين ؟ هل مات كوبيو ؟!

وبسطت جرفيز ذراعيها اليه في توسل وابتهال وهي تقول :

– اه . احملني الى المدافن . لقد نلت كفايتي من الحياة وقسوتها . انني اريد ان استقر في مثواي الاخير . لا تقسو على . ارجوك . ان الموت هو الرحمة الوحيدة الباقية لي . ارجوك . احملني الى المدافن .. ابتعد بي عن هذا العالم القاسي ..

وركعت امامه وهي ترتعد من قمة رأسها الى اصبع قدمها من فرط لهفتها لتحقيق هذا الامل . ولم يسبق في حياتها أن ركعت امام رجل . ولكن وجه بازوج المجعد الدميم كان يبدو لها جميلا باهرا .. ولكن الرجل العجوز ، نصف المخمور ، ظن انها تداعبه ، فقال :

– اوه .. لا تحاولين اغرائي !

وهتفت بحماس أشد :

– ارجوك يا مسيو بازرج . ارجوك . انني جادة . احملني في أحقر لحد لديك وابتعد بي عن هذا البيت . عن هذه الحياة . خذني بعيدا الى حيث أستطيع ان استريح . ان انام . وانام . ولا أصحو ابدا .

وقال بازرج وهو لا يزال يعتقد ان الامر كله دعابة :

– انني متعب الليلة بعد أن واريت الثرى ثلاث عجائز .. وأعتقد ان كل واحدة منهن ما كانت لتتردد في أن تنفحني بقشيشا لو أمكنها ان تضع يدها في جيبها . نعم . لقد كنت رفيقا بهن جدا وانا أضعهن في قبورهن . اما انت . فلننظر في امرك غدا

وسارت جرفيز الى غرفتها مترنحة ، والقت بنفسها على بقايا الحشية البالية وهي تتمتم :

– ان أقسى ما في الفقر أنه يقتل ببطء !

الفصل الخامس عشر

الـكأس القاتـلة

وظل كوبيو غائبا عن المسكن تلك الليلة .. وفي الصباح تسلمت جرفيز حوالة بريدية بعشرة فرنكات من ابنها اتيين الذى كان يعمل وقادا في قاطرة وكان الغلام يرسل اليها مبالغ زهيدة بين الحين والاخر لادراكه حالة الفاقة التى تعيش عليها أمه . واشترت جرفيز وجبة طعام شهية وأكلتها بمفردها ، لان زوجها الحيوان لم يحضر في ذلك اليوم ، ولا في اليوم التالى أيضا . وكذلك لم يحضر في يوم الـثلاثاء او الاربعاء . ومر اسبوع كامل دون ان تراه . اللعنة عليه . لا شك انه عثر على امراة بغى قبلت أن تطعمه من مالها الملوث . وحسنا فعلت .. لقد خلصتها من عبء ثقيل .

ولكنها تسلمت في يوم الاحد التالى ورقة مطبوعة ، فزعت منها في أول الامر ، لانها بدت كأنها اخطار من مركز الشرطة لاستدعائها . ولكنها اطمأنت حين وجدت انها مجرد اخطار بأن زوجها ـ العربيد ـ موجود بمصحة سانت آن للامراض العقلية ، في حالة سيئة جدا . ورغم لهجة الاخطار المهذبة ، فقد صارحتها بأن امرأة تدعى صـوفى لاريير هى التى حملت كوبيو في حالة يرثى لها الى المصحة ..

ولم تحفل جرفيز بالامر .. انها ليست المرة الاولى او العاشرة التى يحمل فيها كوبيو الى مصحة الامراض العقلية لعلاجه مؤقتا من ادمان الخمر .. انه سيخرج ويعرف طريقه يوما الى الغـرفة ليعود مرة اخرى الى الادمان . الم تسمع في ذلك الصباح بالذات ، أن كوبيو ظل أسبوعا كاملا وهو في حالة سكر كامل ، ينتقـل من حانة الى حانة ، مع صديقه مبيوتس ، الذى ينفق باسراف من مال زوجته ! واستبد الغضب بجرفيز حين خطر لها ان هـذين العربيدين لم يفكرا لحظة في أن يرسلا اليها قليلا من المال لتأكل ..

هل سمع أحد بمثل هذا السلوك .. أسـبوع كامل من الادمان على الخمر دون مجرد التفكير فى اطعام الزوجة الجائعة !

وما دام الامر كذلك ، فليذهب الى المصحة او الجحيم !

ولكن جرفيز ، فى يوم الاثنين ، شعرت بتـأنيب الضميـر بعد أن تناولت عشاءها المبكر من بقايا وجبة الغداء ، وخرجت تتمشى قليلا .

وكانت الثلوج قد ذابت ، وتحسن الجو ، ومن ثم شعرت بالراحـة وهى تسير فى الشوارع ممتلئة المعدة ، ناعمة بالهواء المنعش فى تـلك الساعة من الاصيل وقررت أن تذهب الى المصحة لتزور كوبيو . ان الزيارة لن تضرها على كل حال .. بل انها ستقطع السنة الجيران الذين يتهامسون وراء ظهرها قائلين انها لم تعد تهتم بزوجها حتى وهو بين الموت والحياة فى المصحة

ومضى بها أحد المعاونين فى المستشفى الى الطابق الاعلى الذى تقع فيه غرفته . وسمعت صراخا عاليا وهى فى الطريق الى هذا الطابق ، ونظرت فى تساؤل الى المعاون وهى تشعر بالرعدة تسرى فى بدنها :

- ما هذا الصراخ ؟

- انه المسيو كوبيو !

- المسيو كوبيو ؟

- نعم .. زوجك . انه يصرخ على هـذا النحو بلا انقطاع منـذ يومين .. وهو كذلك يرقص !

يا للسماء ! وما أبشع ما رأت ! لقد وقفت مذهولة بباب الغـرفة المبطنة الجدران والسقف والارضية بالجلد ، وعلى الارض حشيتان من القش احداهما فوق الاخرى . وفى الغرفة كان كوبيو يتواثب فى رقصة تشبه رقصة السكارى فى الاعياد .. رقصة الكورتيـل التى يؤدونها فى الشوارع . وكانت ملابسه مهلهلة ، وشعـره متطايرا ، منتصبا ، وساقاه تضربان الهواء ، وذراعاه تطوحان فى كل اتجاه ، وهو يقفز حينا الى النافذة ، ثم يهبط الى الارضيـة ، ويصطـدم جنبا بهذا الجدار ، ثم يرتد الى الجـدار المواجه له ، ويثب الى السقف ليهبط على ركبتيه ، ويدور حول نفسه ، ثم يترنح قليلا ، ويعود الى تكرار هذا كله ، وصراخه لا يهدأ لحظة واحدة ، وكأنه حيوان تعرف مصيره وهو يقاد الى المذبح !

وقالت جرفيز فى ذهول عميق :

ـ يا اله السماء ؟ ماذا جرى له .. ماذا جرى له ؟

وكان ثمة طبيب شاب متورد الوجه ، ضخم الجسم ، جالسا الى مكتب صغير امام الغرفة يدون ملاحظاته بهدوء تام ، وكأنه أحد العلماء الذين يجرون تجاربهم على الحشرات تحت المجهر

وقال الطبيب ردا عليها :

ـ يمكنك ان تبقى هنا بضع لحظات اخرى .. وكذلك يمكنك أن تتحدثى اليه .. ولكنه لن يعرفك .. ان هذه الحالة تهمنا جدا ، لانها نموذج كامل للحالة الاخيرة التى يصل اليها المدمن العائد

وكان يبدو على كوبيو ، فى الواقع ، أنه لا يعرف زوجته ، أو حتى يراها . وكانت هى لم تره جيدا عندما وقفت فى اللحظة الاولى امام باب الغرفة المحصن بالقضبان الحديدية . ولكن عندما أمعنت النظر الى وجهه ، أبت أن تصدق عينيها . ايمكن ان يكون هذا وجه آدمى ؟ انها ما كانت لتتعرف عليه لولا بعض السمات الاخرى التى لا تخطىء فى الدلالة عليه . لقد كانت عيناه بلون الدم ، وشفتاه متهدلتين متورمتين ، ووجنتاه منكمشتين كوجه حيوان عجيب ، وانفه متورما ، وبشرته حارة يتصاعد منها البخار ، ويتألق عليها العرق الغزير ، وأنفاسه لاهثة كلما توقف برهة وجيزة عن الصراخ . وكانت ملامحه كلها تنم عن شعوره بآلام مبرحة الى حد العذاب

وعادت جرفيز تقول للطبيب الشاب الذى كان ينقر باصبعه نغمة لاغنية معروفة على سطح المكتب :

ـ يبدو ان الامر خطير هذه المرة ياسيدى !

وأومأ الطبيب برأسه دون أن يجيب . وعندئذ عادت جرفيز تقول متسائلة :

ـ انه يتمتم بكلمات لنفسه .. فماذا تراه يقول ؟

فغمغم الطبيب الشاب قائلا :

ـ انه يتحدث عن أشياء وأشباح يراها . اهدئى . دعينى أسمع ما يقول !

وكان كوبيو يتحدث أثناء صراخه وكأنما يوجه الحديث الى نفسه :

.. شىء جميل ! . عظيم جدا . آه . هذه هى الكئوس

والموسيقى . ما أعظم هذا . ولكنهم يحطمون الكئوس . حسنا . ولكن ما هذه النيران . هذه الصواريخ . بالونات اللهيب فى الهواء .

ما اكثر هذه المصابيح تحت الاشجار . ان الماء هنا كثير . فى النافورات والينابيع . والمساقط . آه ما أجمل صوت الماء فى المساقط . انه موسيقى

ثم يتوقف لحظة ويرهف اذنه كانه ينصت الى خرير المياه فى المساقط ، وفجاة يعود الى وثباته وصراخه ، لكى يتحدث مرة اخرى قائلا :

— ايها الملاعين . ايها القتلة . اننى على حذر منكم . انكم تريدون منى أن أقتل نفسى . تريدون أن اشرب . واشرب حتى اموت من فرط الشرب . آه . بل تريدون ان القى بنفسى فى كل هذه المياه . ولكن لا ، لا . لن افعل . اننى اهرب منكم . وسوف أظل هاربا الى الابد .

ويقوم كوبيو بحركات الانسان الذى يحاول أن يقفز من فوق الجداول والقنوات ومساقط المياه حتى لا يقع فيها . ثم يعود صارخا قائلا :

— هذا مستحيل . مستحيل . حتى الاطباء . ان القتلة السفاكين يغرونهم بى . يجعلونهم ضدى

وقالت جرفيز للطبيب فى النهاية :

— لسوف أنصرف يا سيدي . لن استطيع ان احتمل هذا المنظر لحظة اخرى . طاب مساؤك

وانصرفت بوجه شاحب ، تاركة كوبيو يقفز من النافذة الى الارض ، ومن الارض الى السقف ، ومن هذا الجدار الى الاخر ، دون أن يكف لحظة واحدة عن الصراخ والهذيان

وكانت طيلة هبوطها على السلم تسمع صراخ هذا الرجل الذى تزوجته يوما لانه يكره الخمر ! يا للهول ؟ . اية لعنة تلك التى حلت عليه ودفعت به الى ادمانها !

ولما خرجت الى الشارع . تنفست بارتياح . فما اجمل ان يخرج الانسان الى الدنيا . ويتنفس الهواء الطلق مرة اخرى !

وأمست حالة كوبيو الخطيرة موضع أحاديث واشفاق سكان البيت

والجيران جميعا . وأخذ البواب بوش وزوجته يقدمان لجرفيز بعض الطعام ليسمعا منها مزيدا من التفاصيل عن حالة كوبيو .. وزارتها أيضا مدام لوريليو وبعض الجارات . وفتح الجميع أفواههن من فرط الدهشة وهم ينصتون الى وصفها لحالة كوبيو . وقال بوش انه عرف نجارا دفعه الادمان فى اواخر ايامه الى خلع ملابســـه والرقص فى الشارع ثلاث ساعات متوالية . اما الرقص والقفز والصراخ ثلاثة ايام فهذا شيء لا يكاد يصدقه أحد . وقالت لهم جرفيز ان الذى يأبى ان يصدق عليه أن يذهب الى المصحة ويرى بنفسه

وذهبت جرفيز فى اليوم التالى لترى ماذا انتهى اليه أمر كوبيو . وكان ذهابها اليه بدافع الفضول لا الشفقة . ولم تكن بحـاجة لان تسأل عن اخباره حين سمعت وهى فى أسفل السلم صراخه المنطلق من غرفته بالطابق الاعلى . ومر بها المعاون الذى قادها اليه فى اليوم السابق ، ثم غمز لها بعينه كأنما يقول ان الحالة كما هى :

ومع هذا قالت له :

ـ ألم يطرأ عليه أى تغيير ؟

فرد وهو ماض فى طريقه :

ـ لا .. مطلقا ..

ومضت الى باب الغرفة . ولكنها توقفت دون الدخول ، لأنها رأت بداخلها رجلين ، أحدهما الطبيب الشاب الذى رأته فى اليوم السابق، والاخر كهل يحمل على صدره شارة وسام الشرف ، وكان يبدو عليه بوضوح انه مدير المصحة .

أما كوبيو فكان يتواثب فى رقصته الخالدة بلا انقطاع . وكان صوته قد تحشرج وأصبح اقرب الى صوت الحيوان المحتضر منه الى صوت الانسان وكان العرق ينثال على جسده فى قنوات .. كان المسكين يستحم بعرقه ، وكان البخار يتصاعد منه فى تزايد ، وازداد اتساع فمه من فرط الصراخ ، وكانت الحشايا قد تمـزقت وتطاير قشها لكثرة قفزاته عليها

لم يكن المنظر يسر احدا .. وقد سألت جرفيز نفسها مرتعدة لماذا جاءت . هل جاءت لتتأكد من أنها لم تبالغ فى وصف حالته للبواب بوش وزوجته ؟ الواقع انها لم تصف نصف الحقيقة عنه . انها الان

تراه بامعان وتسجل فى ذهنهـا كل حركاته . وكذلك التقطت بعض العبارات المتبادلة بين الطبيب ومدير المصحة . وكان الاول يقـدم للثانى تقريرا كاملا عن حالة المريض فى الليلة السابقة . انها حقا لم تفهم الكثير من حديثه ، ولكنها أدركت ، بوجه عام ، أن كوبيو ظل على هذه الحالة من التواثب والصراخ طيلة الليل ، والنهار ، ولاحظ مدير المصحة وجودها ، فسأل الطبيب عنها ، فقال له انها زوجـة المريض . وعندئذ أخذ المدير يسألها كما لو كان وكيلا للنيابة ، فقال :

ــ هل كان والد هذا الرجل مدمن خمر ؟

ولم يسع جرفيز الا ان تجيب بالحقيقة قائلة :

ــ نعم يا سيدى .. ولقد مات حين سقط من فوق سقف بيت وهو مخمور ..

وأومأ المدير برأسه وقال :

ــ وأمه .. هل كانت مدمنة شراب ؟

فهتفت جرفيز وقالت :

ــ انها كأية امرأة اخرى .. تشرب بين الحين والاخر .. كانت تحب الخمر ولكنها لم تدمنها .. انه ينحدر من اسرة طيبة . وقد مات له أخ بداء التشنج .

وركز المدير عينيه النفاذتين الى وجه جرفيز وقال :

ــ وانت .. هل تدمنين الخمر ؟

واقسمت له انها ليست مدمنة .. وانها تشرب قليلا بين الحين والاخر ، وفى بعض المناسبات . ولكنه قال لها :

ــ ان القليل يؤدى الى الكثير .. والشرب فى المناسبات يؤدى الى الادمان .. ويحسن ان تكونى على حذر .. ها أنت ترين المصير الذى ينتهى اليه المدمن .. كل مدمن .

ووقفت متسمرة فى مكانها . واستدار المدير بظهره اليها ، وراح يرقب كوبيو بامعان شديد غير حافل بالقش المتطاير على ملابسه . وكانت التشنجات العصبية قد سرت فى ذراعى كوبيو وساقيه ... وأصبح عاجزا عن السيطرة عليهما جميعا .. وبدا المسكين كأن هناك مخلوقا خفيا قد شد أطرافه الى خيوط غير منظورة وراح يحركهـا

كيف يشاء دون أن يقوى كوبيو على مقاومته • وأخذت التشنجات تنتشر تدريجيا فى جسمه ، وكانت تستمر بضع ثوان ثم تتوقف .. ثم تبدأ من جديد ، مثل الرعدة التى تسرى فى جسد كلب ضـــال فى ليلة شتاء أمام باب مغلق . ولم تلبث منطقة البطن والاكتـــاف ان اخذت فى الارتعاد كأنها الماء فى حالة الغليان

وفى خلال هذا كله كان صراخ كوبيو قد تحول الى انات عاليه . وكان الواضح انه يتعذب أكثر مما كان فى اليوم الســـابق . ذلك ان توجعاته غير المفهومة كانت تدل على معاناته من جميع الامراض ... ان الاف الابر تنفذ فى جسمه •• ان شيئا ثقيلا يجثم على صدره •• ان مجموعة من الافاعى الباردة تزحف على ساقيه وتنشب انيابها فى فخذيه .. وهناك أيضا وحوش تنهش كتفيه وظهره بمخالبها .

وكان يردد باستمرار قائلا :

ــ اننى عطشان .. عطشان .. أغيثونى .

وتناول الطبيب اناء شراب الليمون من رف ، وقدمه اليه ليشرب منه ، وأمسك كوبيو بالاناء بكلتا يديه وجرع منه بنهم ، ولكنه لم يلبث ان بصق الجرعة فى اشمئزاز وسخط وهو يقول :

ــ اللعنة عليكم •• ان هذا براندى •• انه يزيدنى عطشا

وفى هذه المرة قدم الطبيب اليه زجاجة ماء بارد ، ولكن كوبيو لفظ جرعة الماء وهو يصيح غاضبا :

ــ انه براندى أيضا .. ان عطشى يزداد !

وكان يشعر منذ اليوم السابق ان كل شىء يشربه ليس الا خمـــر البراندى التى تنزلق الى جوفه كماء النار ، وحتى الحســاء كان يحسبه خمر البراندى .. وكان يتهم الجميع بالعمل على قتله عمدا للخلاص منه ، وكانت زنزانته مفعمة برائحة الكبريت المتصاعدة من عرقه •• وكان هو يتهم المسئولين فى المصحة بأنهم ينثرون مسحوق الكبريت تحت انفه !

وظل الطبيب واقفا ينصت بامعان الى هذيان كوبيو الذى بـــدأ يتحدث عن رؤيته للاشباح فى ضوء النهار . انه يرى فى غرفتهنسيج عنكبوت ضخم ، وان خيوط هذا النسيج لتشبه حبال السفن ، ان هذا النسيج ليتحول الى شباك .. وفى داخل الشباك كرات تتواثب

.. كرات سوداء تصعد وتهبط مثل كرات الحاوى .. وتكبر وتصغر لكى تغيظه وتزعجه .. ثم يصيح فجأة :

ـ الجرذان .. انظروا الى الجرذان ..

لقد تحولت الكرات الى جرذان .. هذه الحيوانات القذرة تتضخم وتقفز من الشبكة الى المراتب ثم تتبخر . وهناك ايضا قرد يخرج من الجدار ، ثم يعود الى الجدار ، وفى كل مرة يزداد قربا منه ـ من كوبيو ـ ولهذا فهو ينكمش عنه حتى لا يقضم انفه . ويتغير المنظر فجأة ، ويخيل اليه ان الجدران تترنح .. ومن ثم يصيح فى فزع :

ـ اها .. انكم تهزوننى .. انكم تريدون ان تدفنونى حيا ..! لن يهمنى هذا . آه .. هناك على الارض . نعم .. دقوا الاجـراس .. أيها الرهبان الملاعين ، انكم ترفعون نغمات الارغن حتى لا يسمعنى الحراس . ان لديهم مدفعا وراء الجدران .. اطلقوا النيران أيهـا الجبناء .. اطلقوا النيران . ان السمار كلها مشتعلة بالنـيران .. النيران الحمـــراء .. والنيران الخـضراء .. والنيران الصفراء .. أغيثونى .. أغيثونى ! .

وتحولت صرخاته الى حشرجة فى حلقه . وراح يغمغم بكلمـات غامضة وقد انتشر الزبد حول شفتيه ، وسال اللعاب على ذقنه . وأخيرا استدار مدير المصحة الى الطبيب الشاب وقال له :

ـ ألا تزال حرارته مرتفعة كالامس ؟

ـ نعم يا سيدى .

وظل المدير يحملق برهة فى كوبيو ، ثم هز كتفيه وقـال للطبيب الشاب :

ـ استمروا على نفس العلاج . حساء ولبن وليمونادة بلا سـكر ولا تتركه لحظة . واذا حدث شىء فاستدعنى .

ولما انصرف ، حاولت جرفيز أن تلحق به لتسأله ان كان هناك أمل فى علاج كوبيو هذه المرة ، ولكنه كان مسرعا ، فلم تستطع ان تلحق به . ومن ثم وقفت مترددة لا تدرى هل تعود الى زنزانة زوجهـا أو تنصرف . ولما سمعته يصرخ مرة أخرى بأن الليمونادة لها رائحة البراندى ، قررت الانصراف .

ورأت البواب بوش وزوجته فى انتظارها عند الباب . ومـا ان

رأياها حتى أدخلاها فى غرفتهما حيث كانت بعض الجارات فى انتظارها أيضا ! هل كوبيو كما هو ؟ نعم عجبا ! ان بوش لا يكاد يصدق لقد راهن بزجاجة خمر على ان كوبيو لا يمكن ان يعيش حتى المساء . وصاح الجميع يطالبونه باحضار زجاجة الخمر .. وقالت مدام لوريليو أن أخاها ظل على هذه الحالة اذن أكثر من ست وثلاثين ساعة .. وهذا رقم قياسى لقوة الاحتمال البشرى . والا فهل سمع أحد ان رجلا استطاع ان يتواثب ويصرخ كل هذه المدة بلا انقطاع .

***

وفى اليوم التالى ، رآها ال بوش وهى فى طريقها لزيارة زوجها فتمنيا لها حظا أحسن . ولكنها فوجئت بدهاليز وممرات المصحة مشحونة الجو بصرخات كوبيو الرهيبة . وقبل ان تضع يدها على درابزين السلم اثناء صعودها اليه ، سمعته يعوى قائلا :

ــ انظروا الى جيوش البق .. انها ستلتهمنى .. ولكنى أقوى منها .. اليكم عنها أيها الملاعين .

ولما وصلت الى باب الغرفة ترددت برهة . لقد بدا لها أنه يحارب جيوشا رهيبة من البق . ولما اقتربت من الباب ذى القضبان الحديدية فوجئت بمنظر لا تنساه .. ان كوبيو يطوح بذراعيه فى كل مكان كأنما يبعد عنه الحشرات الزاحفة عليه . وكان يضرب بيديه نفسه والجدران والارضية ، والهواء ثم يفتح النافذة ، ويحاول أن يختبى ثم يتحفز للمقاومة ، ويصيح متحديا عددا كبيرا من الاعداء . ثم رأته جرفيز وهو يتوهم نفسه فوق سطح بيت بنيت عليه أنابيب الماء والغاز .. وكان يصيح وهو يقوم بدور الشخص المعلق فى سلاقة ، طالبا أن يسرع اليه بهذه الاداة أو تلك من أدوات العمل ، وفجأة يتخيل ان فى بطنه آلة بخارية ، ومن ثم يفتح فمه ليخرج منه البخار .. ويظل ينفخ وينفخ ــ مقلدا صوت الالة ــ حتى تنقطع أنفاسه ، واخيرا يقول :

ــ هاللو .. انهم الزملاء من شوسيه كلينا فكورت ، لكنهم متنكرون فى جلود الدببة .

ثم يقبع وراء النافذة فى سمت الذى يرقب موكبا عجيبا فى الشارع ويصيح :

ـ ما أعجب هذا الموكب .. انه موكب السباع والفهود والنمور ـ انها جميعا تضحك !! وهناك أيضا غلمان متنكرون فى شـــكل كلاب وقطط .. وهناك كليمانس .. انها ترفع شعرها بالريش .. عليها اللعنة .. انها تخلع ملابسها كلها وتقف عارية .. أوه .. تعالى الى يا بطتى .. ايها الشرطة الملاعين .. دعوها وشأنها .. لا تطلقوا النار عليها .

وارتفع صوته بالخوف ، وحنى رأسه تحت حافة النافذة حتى لا يصاب برصاصة . وعاد يقول صارخا :

ـ لا تطلقوا النيران .. لا تطلقوا النيران ..

وتتساقط البيوت .. ويقلد هو صوت تساقطها .. ويختفى كل شىء . ولكن لم يعد لديه وقت ليتنفس .. لان هناك مواكب أخرى تتقدم وبسرعة . وتستبد به رغبة عارمة للحديث فيمتلىء فمـــه بالالفاظ ، وتتناثر هذه الالفاظ كطلقات الرصاص من صدر يعـــلو ويهبط ، وبصوت يزداد ارتفاعا :

ـ هاللو ؟ أهذه أنت ـ طاب يومك .. لا داعى للغضب اليوم .. لا ، لا .. لاتدعينى آكل شعرك .

ووضع يديه على عينيه ، ثم راح يبعد عن فمه الشعر ، وهنا قال له الطبيب الشاب :

ـ من ترى ؟

ـ زوجتى طبعا ... انها جرفيز

والتفت الى الجدار موليا ظهره لجرفيز التى جفلت عند سماعها اسمها يتردد على لسانه .. وعاد هو يقول :

ـ لا .. لا تخنقونى . لا تقيدونى .. آه .. انك تبدين جميلة ، هذا الثوب ! من أين لك ثمنه أيتها البغى ! لا شك انك الان من بنـــات الهوى .. اه .. من هذا . انظرى .. اللعنـــــة .. انه هو مرة أخرى .

وعاد الطبيب يقول مكررا :

ـ من ترى الان ؟

ـ القبعاتى .. القبعاتى لانتيير ..

وسأل الطبيب جرفيز عن لانتيير هذا ، ولكنها ارتبكت وتلعثمت ولم

تستطيع ان تجيب . وكان اسم لانتيير قد اعاد اليها فى لحظة كل عذاب حياتها معه ومع هذا العربيد !

وعاد كوبيو يصرخ قائلا وهو يهدد بقبضته :

ـ هلم نصفى ما بيننا من حساب ايها الوغد . لسوف امسحك من وجه الارض تماما . انك تريد أن تهرب . أليس كذلك ؟ تريد أن تهرب بزوجتى لكى تجعلنى أضحوكة الجميع . لسوف أخنقك نعم .. نعم .. لسوف أضع القفاز فى يدى لم أعد أهتم بأمثالك .. خذ هذه .. وهذه .. وهذه ..

وراح يضرب الهواء بقبضتيه . ثم استبد به غضب هائل ، وقبع بجوار الجدار وقد خيل اليه ان هناك من يريد ان يهاجمه من الخلف وفجأة استدار وراح يهاجم الجدار بعنف ، ثم اندفع يثب فى الهواء من ركن الى ركن ، مصطدما ببطنه ، او بكتفه ، أو بفخذه ، ثم يسقط متدحرجا ، ويصرخ كأن عظامه تتكسر ولحمه يتمزق ، ويرسل عبارات التهديد وهو يحاول ان يقاوم ذلك العدو الخفى ، ثم ينكمش كمن يتلقى الضربات من جميع الجهات . وينتهى الامر الى الاستسلام كطفل مغلوب على أمره ، ثم يردد قائلا :

ـ اغيثونى .. انهم سيقتلوننى .. انهم يقطعون ساقى .. وذراعى ويفتحون بطنى .. الدماء تنزف .. الدماء .. النجدة .. النجدة !

ويتصبب بالعرق الغزير ، وينتصب شعره ، ويسقط على الحشايا التى تتعثر فيها قدمه وتشتبك . وتصيح جرفيز قائلة :

ـ اغثه ياسيدى الطبيب .. انه سيموت .

ويمضى الطبيب ، ويخلص قدم كوبيو من الحشية . وفى تلك اللحظة ، يحضر مدير المصحة ومعه رجلان : أحدهما نحيل والاخر بدين . وانحنى الثلاثة على كوبيو يفحصونه بامعان ويتبادلون حديثا سريعا . وكانوا قد عروا الجزء الاعلى من جسمه وشرعوا يفحصون التشنجات التى شاعت فى كل جزء من الجسم فى ذلك الحين . وكان المسكين يبدو كانسان ضعيف تدغدغه مئات من الايدى ، فيتلوى ويتراقص دون ان يقوى على النهوض . وبعد برهة من التشنجات العنيفة المتوالية ، همدت حركته تماما .. وسكن جسمه .

وحملقت جرفيز فى وجه كوبيو فى رعب •• لقد كان يبدوملتويا، بعيد الشبه عن وجوه البشر ، وكأنه وجه ميت لفظ انفاسه وهوتحت وطأة كابوس رهيب . ولما رات الاطباء يضعون ايديهم على صدره ، أرادت هى ايضا ان تتحسس هذا الصدر .. . وتقدمت خطوة ووضعت يدها على كتف زوجها . يا للهول .. ماذا يجرى تحت البشرة ! ان التشنجات تبدو كانها مجرى مائى ينثال تحت البشرة .. كانها أيدى الدمار تحطم كل خلجة فى ذلك الجسد المعذب ، لا شك ان الخمر التى تحطم الجسد كأنها رءوس المعاول • ان الجسم كله مشبع بها .. وان عليها ان تتم رسالتها الشيطانية مع هذا الجسم الذى عب منها باسراف .

وانصرف المدير مع الزائرين . وبقيت جرفيز نحو ساعة مع الطبيب المعالج ، واخيرا قالت له :

— سيدى .. سيدى .. انه ميت !

ولكن الطبيب هز راسه وهو ينظر الى قدمى كوبيو المختلجتين ، وفجأة توقفت حركتهما تماما .. وهنا قال لها .

— الان يمكن القول انه انتهى .

الموت فقط هو الذى قضى على اختلاج القدمين .

والقت جرفيز نظرة اخيرة على الرجل الذى تزوجته وعاشرته اكثر من عشرين عاما ، ثم حنت راسها ، واستدارت بهدوء ، وانصرفت ..

وظلت فى حالة من الذهول وهى تقطع الطريق بين المصحة ، وبيت الاحزان •• وكانت كلما تقدمت خطوة ، تشعر كأنها كالشاة التى تقاد الى المجزر ••

أى مصير ينتظرها .. حقا لقد استراح كوبيو من حياة كلها العناء والعبث والخمر .. استراح واراحها .. ولكن .. ماذا ينتظرها هى ؟

وشعرت فى تلك اللحظة بيد توضع على كتفها •• فجفلت واستدارت لترى كوجيت الحداد ، يضع ذراعه فى ذراعها ، وهو يهمس :

– كنت فى المصحة منذ لحظـــات .. وقيل لى انك انصرفت ، فأسرعت للحاق بك ..

وارادت ان تقول شيئا ، ولكنها لم تســـتطع .. ومن ثم اكتفت بالنظر برهة الى عينيه البريئتين .. وخيل اليها انها ترى فى اعماقهما أمالها التى ماتت ، تبعث من جديد .!

تمــت



اشترك فى روايات الهلال

« اسعار الاشتراك على الصفحة الثانيه »

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد
صندوق البريد رقم ٢١

البرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Março, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRAZIL

سنغافورة : Ahmed Bin Mohammed Bin Samit
Almaktab Attijari Asshargi.
P.O. Box 2205
SINGAPORE

انجلترا : The Arabic Publications Distribution
Bureau,
7, Bishopthorpe Road
London S.E. 26,
ENGLAND